مقرر التفسير للسنة الثالثة

بالمدارس المتوسطة



الجزء الثالث

ألّفه

عبد الله خياط

منشورات

مكتبة النجاح

جدة

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك اللهم وأشكرك ، وأصلي وأسلم على أشرف خلقك ، محمد عبدك ورسولك ، وعلى آله وصحبه . وبعد :

فهذه هي الحلقـــة الثالثة من كتاب « التفسير الميسر » تبتدىء من سورة محمد وتنتهي بانتهاء سورة الرحمن وتشمل مقرر السنة الثالثة بالمدارس المتوسطـة ، وهي خلاصات اعتمدت في وضعها على التفاسير المشتهرة المعتبرة .

والله أسأل أن ينفع بها ويعينني على إتمام بقية السلسلة إنه أكرم مسئول .

وصلى الله على خير خلقه ، محمد وآله وصحبه .

١٣٧٧/١٢/١٧

عبد الله خياط

تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

« الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) » .

ابتدأ سبحانه هذه السورة ، بعد مقارنة بين الكافرين والمؤمنين .. أوضح فيها جزاء الفريقين. فأخبر أن الكافرين الذين جحدوا توحيد الله وعبدوا غيره ، سواء كانوا من قريش ، أو من غيرهم ، وصدوا عن سبيل الله ، وهو الإسلام ؛ يكون جزاؤهم على ذلك : إبطال أعمالهم ، وإحباطها فلا يؤجرون عليها .. والأعمال : كعمارة المسجد الحرام ، وقرى الأضياف ، وغير ذلك.. وقيل المراد بإبطال الأعمال : إبطال كيدهم الذي كادوه لرسول الله ﷺ .. وإنفاق الأموال لمحاربته .. وعلى عكسهم المؤمنون الذين صدقوا بألوهية الله ، وعبدوه وحده ، وصدقوا بالكتاب المنزل على الرسول وهو القرآن .. والقرآن : هو الحق الذي لا شك فيه ، أنزله على رسوله .. هؤلاء : يكون جزاؤهم ، تكفير السيئات الماضية وصلاح شأنهم وأعمالهم ..

ثم أوضح سبحانه السبب في إبطال أعمال الكفار وإحباطها ، وإصلاح شأن المؤمنين فقال :

(أضل) أحبطها وأبطلها . (كفّر عنهم) أزال ومحا عنهم. (أصلح بالهم) حالهم وشأنهم.

« ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْبَاطِلَ » .

أي اختاروا الباطل الذي أوحى به الشيطان إليهم فاتبعوه .

« وَأَنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ » .

أي اتبعوا الحق الذي أوحى به الرحمن إلى عبده ورسوله محمد؛ ثم قال تعالى :

« كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) » .

أي : بمثل هـــذا البيان الذي أوضحه ، يبين الله للناس أحوال الفريقين وأوصافهما .. وقيل أمثالهم : أي أشباههم ، فالمؤمنون يتبعون الحق ، فيكون في ذلك فوزهم ؛ والكافرون يتبعون الباطل ، فيكون في ذلك خسرانهم ..

ثم أوضح سبحانه الطريقة التي يسلكها المؤمنون في جهاد أعدائهم المشركين لإرهابهم وكسر شوكتهم ، قال تعالى :

« فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ » .

أي : إذا التقيتم بهم في الحرب ، فاضربوا رقابهم وافصلوها عن الأجساد !

« حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ » .

أي إذا أكثرتم فيهم القتل ، فأحكموا شد الأسارى منهم لئلا يفلتوا . وبعد انتهاء المعركة فالإمام مخير في الأسرى بين المنّ عليهم ..وإطلاق سراحهم بدون عوض .. وإما أن يطلقهم بعوض يفتدون به أنفسهم .. قال تعالى :

« فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » .

(أثخنتموهم) أوسعتموهم قتلاً وجراحاً . (فشدوا الوثاق) فأحكموا قيد الأسارى منهم .
(فداء) بالمال أو بأسارى المسلمين . (مناً) بإطلاق الأسرى بغير عوض .

ثم أخبر سبحانه أن جهاد الكفار على هذه الطريقة ، لا يزال قائماً حتى تنقضي الحروب بين المسلمين والمشركين بحيث لا يبقى إلا مسلم، أو مسالم للمسلمين، بينه وبينهم عهد ، قال تعالى :

« حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » .

وأوزار الحرب ، أثقالها وآلاتها المعروفة كالسلاح قديماً وحديثاً .. والمراد أهل الحرب ، أي حتى يضعوا أسلحتهم ، ثم قال سبحانه : « ذَٰلِكَ » أي ما ذكر من أحكام القتال ، فافعلوا بهم ذلك .. ولو شاء الله لأهلكهم بدون قتال ، ولكنه شرع الجهاد تمحيصاً للمؤمنين فيما ينالهم من قتل وجراح، ومحقاً للكافرين ومعاجلة عليهم بالنقمة .. قال تعالى :

« ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ » :

أي : يختبر بعضكم ببعض .

ثم أخبر سبحانه عن مصير قتلى المؤمنين الذين استشهدوا في سبيله فقال :

« وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) » .

أي : لن يضيعها بل ينميها ويأجرهم عليها ..

« سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) » .

أي يهديهم في الدنيا إلى أفضل الأمور .. ويهديهم في الآخرة إلى الجنة .. (ويصلح بالهم) أي أمرهم وحالهم .

(تضع الحرب أوزارها) تنقضي الحرب . (ليبلو) ليختبر .

« وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ (٦) » .

أي : يدخلهم الجنة .. ويهديهم إلى بيوتهم، ومساكنهم، لا يخطئون الطريق إليها ، كأنهم سكنوها منذ أن خلقهم الله .. !

ثم حفز سبحانه همم المؤمنين للقيام بنصر دينه ورسوله .. ووعدهم على ذلك بالنصر على أعدائهم ، وتثبيت أقدامهم في القتال ، قال تعالى :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) » .

ثم أردف سبحانه هذا الوعد الكريم للمؤمنين بقوله في حق الكافرين :

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ » .

أي : فهلاكاً لهم .. يقول ذلك سبحانه على سبيل الدعاء عليهم .

« وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) » .

أي أبطلها .. وأحبطها .. لأنها كانت في طاعة الشيطان .

ثم أوضح السبب في خيبة الكفار وهلاكهم فقال :

« ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) ».

أي : كرهوا نزول القرآن لما فيه من الهدى والأحكام ، وأشركوا بالله في عبادته ، فأحبط الله أعمالهم .. لأن الشرك محبط للأعمال .

ثم حذر سبحانه المشركين عاقبة شركهم وتكذيبهم للرسول، وأرشدهم إلى النظر في عاقبة الأمم المكذبة للرسل ، قال تعالى :

(فتعساً لهم) فهلاكاً أو عثاراً أو شقاء لهم . (فأحبط أعمالهم) فأبطلها .

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » كعاد وثمود وغيرهم .. « دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ » .

أي أهلك كل ما يختص بهم من الأنفس والأهل والأموال .. وتوعد سبحانه كل من يصنع مثل صنيعهم عن الكفر والتكذيب للرسل بمثل هـذا الهلاك .. قال تعالى :

« وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) » .

ثم أوضح سبحانه السبب في إهلاك الكافرين والمكذبين فقال :

« ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) » .

أي : أن الله سبحانه ، هو المتولي لأمور المؤمنين وناصرهم ، أما الكفار ، فليس لهم من ناصر أو مجير .

ثم أوضح سبحانه مآل الفريقين في الآخرة فقال :

« إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » .

وعلى عكسهم الكفار .. وصفهم سبحانه أبشع وصف فقال :

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ » .

يتمتعون في الدنيا بشهواتهم ، ويأكلون كأكل الأنعام ، لا يهمهم غير

(دمر الله عليهم) أطبق الهلاك عليهم . (مولى) ولي وناصر .

بطونهم ، ولذلك ليس لهم حظ في الآخرة، بل تكون النار مقامهم ومستقرهم ، قال تعالى :

« وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) » .

ثم وجه سبحانه الخطاب للرسول ﷺ قائلا :

« وَكَأَيِّن مِّنْ قَرْيَةٍ » وكثير من أهل القرية « هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ » أي كان أهلها أشد وأقوى من أهل مكة « أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ (١٣)» .

أي أهلكهم الله لما كذبوا رسله ، فلم يكن لهم من ناصر يمنع عنهم عذاب الله وهلاكه لما حل بهم ، وفي ذلك وعيد شديد لكفار مكة وتهديد لهم .

ثم ذكر سبحانه الفارق العظيم بين المؤمنين والكافرين فقال :

« أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ » .

أي : على يقين وبصيرة في أمر الله ودينه .

« كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤)» .

أي زين له الشيطان سوء عمله ، واتبع هواه في عبادة غير الله .

وفي الآيات التالية أوضح سبحانه ما أعده لكلا الفريقين من نعيم ومتعة ، أو جحيم ونكال ، قال تعالى :

« مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ » أي صفتها وما فيها من ألوان

(مثوى لهم) موضع ثواء وإقامة لهم . (كأين من قرية) كثير من القرى .

النعيم.. ثم أخذ يفصله فقال « فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ » أي أنهار جارية من مياه غير متغيرة الطعم والريح « وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ » أي لا يتغير بالحموضة كما تتغير ألبان الدنيا « وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ » .

أي : وفيها أنهار من خمر لذيذ لمن يشربها ، ليست كريهة كخمر الدنيا .

« وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ».

أي : وفيها أنهار من عسل خالص ليس فيه شمع كعسل الدنيا ، ولم يخرج من بطون النحل ، وفوق ذلك لهم من جميع أصناف الثمار .. يضاف إلى ذلك مغفرة من الله لذنوبهم ، ورضاؤه عنهم ، قال تعالى :

« وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ » .

أما الكفار المكذبون، فقد وصف سبحانه حالهم وسوء مصيرهم فقال :

« كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ».

أي : هل يستوي حال المؤمنين ونعيمهم في الآخرة ، بحال المشركين المخلدين في النار الذين يسقون من الحميم ، أي : الماء الحار الذي اشتد غليانه فتنقطع من شربه أمعاؤهم ، قال تعالى :

« وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) ».

ثم انتقلت الآيات إلى وصف حال المنافقين في حضورهم مجلس رسول الله ومواعظه ، فقال تعالى :

(غير اسن) غير متغير ولا متعفن . (عسل مصفى) منقى من جميع الشوائب.(ماء حميماً) بالغاً الغاية من الحرارة .

« وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً » .

أي : يستمعون إلى الرسول ﷺ وهو يقرأ القرآن ، أو يعظ ويخطب ولا يلقون له بالاً .. فإذا خرجوا من مجلس الوعظ سألوا أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ كعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، قائلين على وجه الاستهزاء: ماذا قال محمد الآن ؟ ثم أخبر سبحانه ، إن هذا الصنف من الناس ، قد ختم الله على قلبه ، فلا يعقل الحق ولا يؤمن به ، وقد اتبع هواه في مــــا ذهب إليه من الكفر والنفاق .. قال تعالى :

«أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦)».

وعلى عكسهم المؤمنون الذين قصدوا الهداية فيما يسمعونه من الوعظ والتذكير ، فإن الله زادهم بذلك هــــدى وبصيرة وأعطاهم جزاء تقواهم .. أو أعانهم على التقوى والعمل بما أُمروا به .. قال تعالى :

« وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) » .

ثم أخبر سبحانه ، أن المنافقين والكافرين لم يتعظوا بأخبار الهالكين قبلهم .. ولم يبقَ لتذكيرهم إلا قيام الساعة فجأة ، وقد غدت قريبة لظهور علاماتها .. ومن تلك العلامات : مبعث النبي ﷺ ، قال تعالى :

« فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا» أي علاماتها « فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) » .

« ماذا قال آنفاً » ماذا قال الآن ، أو الساعة القريبة . « جاء أشراطها» علاماتها وأماراتها. « وأنى لهم » فكيف ، أو من أين لهم ؟ « ذكراهم » تذكرهم ما ضيعوا من طاعة الله .

أي : فكيف يكون لهم التذكر ، إذا جاءتهم الساعة بغتة ؟!

ثم وجه سبحانه الخطاب لرسوله مقرراً تفرده بالألوهية ، ليعبد وحده دون سواه ، آمراً له بالاستغفار من ذنبه ، وإنما أمره بالاستغفار لتستنّ به أُمته ، وإلا فقد غفر له سبحانه ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأمره أيضاً أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، قال تعالى :

« فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلّا اللهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ».

ثم أوضح سبحانه سعة علمه ، وإحاطته بكل أحوال عباده ، قال تعالى :

« وَٱللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) » .

المتقلب : المراد به التصرف ، والمثوى : المسكن والمأوى ، والمراد أن الله محيط علمه بأحوال عباده في كل تصرفاتهم ، ومطلع على أحوالهم في تجولهم واستقرارهم .. وعندما يأوون إلى مضاجعهم !.

ثم أخبر سبحانه عن رغبة المؤمنين في الجهاد ، وأنهم يطلبون نزول سورة يشرع لهم فيها قتال الأعداء .. قال تعالى :

« وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ » .

ثم أوضح حال المنافقين في كراهيتهم لذلك ، قال تعالى :

« فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » أي نفاق « يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ».

(يعلم متقلبكم) متصرفكم حيث تتحركون . (مثواكم) مقامكم حيث تستقرون .
(المغشى عليه) من أصابته الغشية والسكرة .

أي : إذا أنزل الله آية محكمة ، وليست متشابهة ، يذكر فيها بيان حكم القتال ، ترى المنافقين ينظرون إليك بتحديق شديد .. نظر من أصابته غشية الموت ، بأن تشخص أبصارهم هلعاً وجبناً .. ثم قال تعالى :

« فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) » .

وهي كلمة توعد وتهديد ، كقولك : ويل لهم . ثم قال تعالى :

« طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ » .

أي : كان الأولى بهم ، أن يسمعوا ويطيعوا بدلاً من الاستنكار .

« فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ » أي إذا جد الأمر ولزم القتال « فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ (٢١) » .

أي : لو أخلصوا النية في الجهاد ، وفي إظهار الإيمان والطاعة ، لكان ذلك خيراً لهم .

« فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ » .

أي : لعلكم إن توليتم عن الجهاد ، ونكلتم عنه .

« أَنْ تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) » .

أي : تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالمعاصي ، وسفك الدماء ، وتقطيع الأرحام .

« أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) » .

« فأولى لهم » قاربهم ما يهلكهم واللام مزيدة أو العقاب أحق وأولى بهم . « طاعة » خير لهم وأمثل بهم . « عزم الأمر » جد وفرض الجهاد . « فهل عسيتم » فهل يتوقع منكم « أي يتوقع» . « توليتم » الحكم وكنتم ولاة أمر الأمة.

أي : أبعدهم عن رحمته، وأصم أسماعهم عن سماع الحق، وأعمى أبصارهم عن طريق الهدى !

ثم أنكر على المنافقين عدم تدبرهم للقرآن ، فقال تعالى :

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ».

أي : أو ما كان الأجدر بهم أن يتدبروا القرآن ، ويتفكروا في مواعظه وزواجره ، وما أخبر به عن نهاية العصاة ؟

« أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) » .

أي بل قلوبهم مقفلة .. إذ قد طبع الله عليها ، فلا تصل إليها موعظة .. !

وأوضح سبحانه أن ارتدادهم عن الإسلام ومفارقتهم له بعد أن وضح لهم الحق ، ما هو إلا من تزيين الشيطان لهم ، وخداعه إياهم ، ومده لهم في الأمل .. قال تعالى :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ».

ثم قال تعالى « ذَٰلِكَ » أي ارتدادهم « بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ » .

أي بسبب أن المنافقين قالوا لليهود الكارهين لنزول القرآن :

« سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ».

أي : في عداوة الرسول « محمد » ﷺ ، وترك الجهاد معه ! وكانوا يقولون

(أقفالها) مغاليقها التي لا تفتح . (سول لهم) زين وسهل لهم خطاياهم . (أملى لهم) مد لهم في الأماني الباطلة .

ذلك سراً .. فأخبر الله تعالى أنه مطلع على جميع ما يسرونه .. قال تعالى :

« وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) » .

وأخبر سبحانه أن هذه الحيل من المنافقين ، وممالأتهم لليهود .. إن أجدت عنهم في الدنيا، فكيف تجدي حين ينزل بهم الموت؟ وما هي حيلتهم حين توفاهم ملائكته على أبشع صورة ، تضرب منهم الوجوه والأدبار ؟ قال تعالى :

« فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) » وأشار بقوله « ذَٰلِكَ » إلى التوفي على هذه الصورة « بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ ٱللهَ » أي من ترك الجهاد « وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ » أي كرهوا ما فيه من رضوانه من الإيمان والطاعة « فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) » أي أبطلها .

ثم سجل سبحانه في الآية التالية ضعف عقول المنافقين ، لظنهم أن الله تعالى لن يطلع رسوله على نفاقهم ، ويظهر له حقدهم على الإسلام ، وإضمارهم السوء له .. قال تعالى :

« أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » أي نفاق « أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) ».

(يعلم أسرارهم) إخفاءهم كل قبيح . (أضغانهم) أحقادهم الكامنة .

وأخبر سبحانه : أنه لو شاء لأوضح لرسوله أشخاص المنافقين، وأراه إياهم، فعرفهم بعلامات يجعلها الله علماً عليهم .. قال تعالى :

« وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ » .

وأكد للرسول : إنه سوف يعرفهم من أحاديثهم الدالة على مقاصدهم ، ومن أسلوبهم ، وفحوى كلامهم ، قال تعالى :

« وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » ثم عقب على ذلك بقوله « وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) » .

أي لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ، وسوف يجازيهم عليها ..

ثم أخبر سبحانه أنه يختبر العباد بالأوامر والنواهي من ذلك الأمر بجهاد الكفار حتى يتبين المجاهدين الصابرين على دينهم الذين يقاتلون عن إيمان ثابت ، وينكشف من يأبى القتال ولا يصبر على شدائده . قال تعالى :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) » .

والمراد بعلم الله هنا : العلم الذي تقوم به الحجة عليهم وبما يصدر منهم من أعمال ، وإلا فقد علم الله الأشياء قبل كونها ..

ثم أوضح سبحانه عاقبة من ارتد عن الهدى بعد أن تبينت له دلائله ، وصد الناس عنه ، وعادى الرسول وخالفه ، وأنه لن يضر بذلك إلا نفسه .. فالله غني عنه .. وسوف يعاقبه بإحباط كل عمل قبل ارتداده ، لا يأجره الله عليه ، قال تعالى :

(بسيماهم) بعلامات فسمهم بها . (لحن القول) أسلوب كلامهم الملتوي . (لنبلونكم) لنختبرنكم بالتكاليف الشاقة . (نبلو أخباركم) نظهرها ونكشفها .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) » .

قيل : المعني بذلك المنافقون أو اليهود .

ثم أمر سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ، وعدم إبطال أعمالهم الصالحة بكبائر الذنوب ، قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) » .

ثم عقب على ذلك بالوعيد الشديد لمن كفر بالله وصد عن دين الله ، ومات على عدائه للإسلام وكفره ، قال تعالى :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عن سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ (٣٤) » .

لن يتجاوز عن سيئاتهم ، بل يؤاخذهم عليها ، ويعذبهم لاقترافها .

وعاد سبحانه يستحث المؤمنين على قتال الكفار ، وينهاهم عن مسالمتهم إظهاراً للعجز ، في حين أنهم الأعلون بحجتهم ، الغالبون بنصر الله لهم ، فقد وعدهم أن يكون معهم بالنصر على أعدائهم ووعدهم أن لا ينقصهم شيئاً من أجور أعمالهم الصالحة وجهادهم ، قال تعالى :

« فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) » .

ثم أوضح سبحانه شأن الدنيا ، وأن حاصل أمرها باطل وغرور ،ورغب في الإيمان والتقوى ، ووعد على ذلك بإيتاء أجور الأعمال في الآخرة ، قال تعالى :

« إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ » .

وختم سبحانه السورة بالحث على الإنفاق في سبيله ، وذم البخل وبدأ ذلك بقوله :

« وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) » .

أي لا يطلب الله ورسوله منكم دفع أموالكم كلها في الصدقات ، وإنما يطلب منكم دفع جزء يسير ، هو : ربع العشر ، ثم قال تعالى :

« إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ » .

أي : أن يطلب منكم إخراج جميع الأموال ، فيجهدكم بطلبها .

« تَبْخَلُوا » أي بالأموال فلا تعطوها « وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) » .

أي : يخرج – بالإلحاف في طلب الأموال – أحقادكم .. ومع الاقتصار على طلب إخراج الواجب المفروض من زكاة الأموال ، فإن البعض يبخل عن إخراجه .. قال تعالى :

(فلا تهنوا) فلا تضعضعوا . (السلم) الصلح والموادعة . (يتركم أعمالكم) ينقصكم أجورها . (فيحفكم) يجهدكم بطلب كل المال . (أضغانكم) أحقادكم الكامنة على الإسلام .

« هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ » .

غير أن من يفعل ذلك ، فإنما يعود وبال ذلك عليه،حيث يحرم من الأجر .. بل يعاقب على منعه للواجب ! والله سبحانه الغني عن كل خلقه ، وكل الخلق مفتقرون إليه ، قال تعالى :

« وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ » والله سبحانه الغني عن كل خلقه وكل الخلق مفتقرون إليه،قال تعالى: « وَاللهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ »، ثم قال تعالى : « وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) » .

أي : إن تعرضوا عن أوامر الله ورسوله ، يأت بقوم آخرين ، يكونون أمثل منكم وأكثر استجابة لأوامر الله وطاعة له، بما في ذلك إنفاق الأموال في سبيل الله ..!

تفسير سورة الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (٢) وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً (٣) » .

افتتح الله سبحانه هذه السورة بامتنانه على رسوله ﷺ بالفتح المبين الظاهر ، وقد كان من غير قتال ، ولا إجهاد .. والمراد به صلح الحديبية عند أكثر المفسرين ، فقد نزلت هذه السورة عندما رجع رسول الله ﷺ ، من صلح الحديبية ، وسمي هذا الصلح فتحاً باعتبار ما كان فيه من المصلحة ؛ وامتنّ الله سبحانه على رسوله بأن غفر له ذنبه ما تقدم منه وما تأخر . والمراد بالذنب : ما بدر منه خلاف الأولى ، بالنسبة لمقامه ﷺ ، مما عاتبه الله عليه ، كقصته مع عبد الله بن أم مكتوم ، حيث أنزل الله عليه « عبس وتولى » وأمثال ذلك .. وامتنّ الله على رسوله أيضاً ، بإتمام النعمة عليه بالنبوة ، وهدايته إلى الصراط المستقيم وهو الإسلام ، وامتن عليه أيضاً بنصره على أعدائه ، نصراً غالباً لا ذل بعده !

وبدأ سبحانه بالآية التالية قصة صلح الحديبية ، قال تعالى :

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ » .

(فتحاً مبيناً) هو صلح الحديبية . (السكينة) الطمأنينة والثبات .

أي : أنزل الطمأنينة في قلوب المؤمنين بهـــذا الصلـح ، فاستجابوا لأمر الرسول ﷺ :

« لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ » .

أي : لمـــا اطمأنت قلوب الصحابة لهذا الصلح ، واستجابوا لأمر الرسول فيه ، زادهم الله عليه إيماناً مع إيمانهم ! ثم قال تعالى :

« وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

أي : ولو شاء لانتقم من أعدائه بإرسال ملك واحـد عليهم لتدميرهم .. ولكنه شرع الجهاد ، لإقامة الحجة على الكافرين بتأييد المسلمين ، ونصره لهم وخذلان الكافرين ،وهو سبحانه العليم بما يصلح عباده الحكيم في تدبيره وتقديره. قال تعالى :

« وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً (٤) » .

ثم قال تعالى : « لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا » .

أورد ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآية حديث « أنس » وفيه : إن رسول الله ﷺ قال حين أنزل عليه « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » الآيات : لقد أنزلت علي آية ، هي أحب إليّ من الدنيا جميعاً .. فلما تلاها .. قال رجـل من القوم : هنيئاً مريئاً لك .. قد بين الله ما يفعل بك .. فماذا يفعل بنا ؟! فأنزل الله قوله : « ليدخل المؤمنين والمؤمنات » الآية .. لما استجابوا لأمر الله ورسوله

في العودة دون أن يحدثوا مع المشركين حدثاً .. أو ينشبوا قتالاً .. جازاهم الله بهذا الجزاء العظيم وفوق ذلك : يكفر لهم السيئات والخطايا ، فلا يعاقبهم عليها وهذا الجزاء العظيم ، إلى جانب غفران الذنوب ، هو الفوز العظيم عند الله لعباده المؤمنين .. قال تعالى :

« وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً (٥) » .

وعرض بعد ذلك سبحانه للمنافقين والمشركين ، وسوء مصيرهم فقال :

« وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ » .

أي : يعذبهم لظنهم السيىء ، حيث كانوا يظنون : أن الله سوف يخذل رسوله والمؤمنين ويقضي عليهم بالقتل على أيدي أعدائهم . قال تعالى :

« عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ » .

أي : سوف يحيط بهم العذاب والهلاك .. جزاء ظنهم ووراء ذلك غضب الله عليهم ، ولعنته لهم وتهيئة النار مسكناً ، ومستقراً يأوون إليها ، وبئست النار من مصير يصيرون إليه . قال تعالى :

« وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٦) » .

وعاد سبحانه يقرر : أن له جنود السموات والأرض ، ولو شاء لانتقم من أعدائه ، وعاجلهم بالعقوبة بواسطة جنوده من الملائكة ، وغيرهم ، فهو العزيز

« ظن السوء » ظن الأمر الفاسد المذموم ، « عليهم دائرة السوء » دعاء عليهم بوقوعه بهم .

في سلطانه ، الحكيم في تدبيره وقضائه وتقديره ، قال تعالى :

« وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (٧) ».

وحدد سبحانه في الآية التالية مهمة الرسول ﷺ فقال :

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً » أي : على أمتك بما أجابوا من دعوتك « وَمُبَشِّراً » أي : مبشراً لمن آمن منهم بالجنة « وَنَذِيراً (٨) ».

أي : منذراً من أعرض عن دعوتك بعذاب الله وانتقامه . وأوضح بعد ذلك العلة في إرسال الرسول فقال تعالى :

« لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ » أي: لتصدقوا بربوبيته ، وألوهيته « وَرَسُولِهِ » .

أي : لتعترفوا برسالة رسوله ﷺ .

« وَتُعَزِّرُوهُ » أي : ولتعينوه ولتنصروه « وَتُوَقِّرُوهُ » .

أي : ولتعظموه ؛ وإلى هنا ينتهي ما كان خاصاً بالرسول ﷺ ؛ ثم قال سبحانه :

« وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) » .

يريد بذلك : الصلاة في أول النهار ، وآخره ؛ وقيل : إن الضمائر من قوله تعالى : « وتعزروه وتوقروه وتسبحوه » هي لله تعالى .

وانتقلت الآية بعد ذلك : يقص الله فيها خبر بيعة الرضوان ،وخلاصة ذلك: أن رسول الله ﷺ عندما وصل إلى الحديبية ، بعث « عثمان بن عفان » رضي الله عنه ، يخبر « قريشاً » بخبر مقدم الرسول ﷺ ، وأنه لا يريد قتالاً . . ولكنه

« تعزروه » تنصروه تعالى بنصر دينه .« توقروه » تعظموه تعالى وتبجلوه. «بكرة وأصيلا» غدوة وعشياً ، أو جميع النهار .

يريد الاعتمار .. فاحتبست «قريش» «عثمان» رضي الله عنه ، بعد أن أبلغهـا رسالة رسول الله .. وشاع بين المسلمين أن «عثمان» قد قتل ! فبايع رسول الله ﷺ جميع الصحابة ، عند شجرة بالحديبية ، على مناجزة قريش .. وعـدم الفرار .. أو بايعهم على الموت .. فأرعب ذلك المشركين .. فأطلقوا «عثمان» ومن كان لديهم من المسلمين .. ودعوا رسول الله ﷺ إلى الموادعـة والصلح .. وفي ذلك يقول الله تعالى لرسوله ﷺ ، تعظيماً له وتكريماً :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ».

قال «ابن كثير» رحمه الله : أي : هو حاضر معهم ، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم ؛ فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله ؛ وقال «السّدى» : كانوا يأخذون بيد رسول الله ﷺ ، ويبايعونه .. ويد الله فوق أيديهم في المبايعة ! وفي قوله تعالى : «يد الله فوق أيديهم» إثبات صفة اليد لله تعالى ؛ وهو مذهب السلف رضوان الله عليهم ، يثبتون لله يداً تليق بجلاله وعظمته .. ثم قال تعالى :

« فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ».

أي من نقض هذه البيعة ، فإنما وبال ذلك على نفسه .

« وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠) » .

أي : من قام بما عاهد الله عليه من القتال ، وعـدم الفرار ، فسوف يجزل

« نكث » نقض البيعة والعهد.

الله له الأجر .. بأن يدخله الجنة دار الكرامة والنعيم ..

ثم انتقلت الآيات : يقص الله فيها خبر المتخلفين عن رسول الله ﷺ حين ندبهم للخروج معه إلى « مكة » لغرض الاعتمار عام الحديبية ، قال تعالى :

« سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا » .

اعتذروا عن الخروج مع الرسول ﷺ ، باشتغالهم بأموالهم ، ونسائهم ، وذريتهم ، وعدم وجود من يخلفهم فيها ؛ وطلبوا من الرسول : أن يستغفر لهم الله عن هذا التخلف ، فأكذبهم الله بقوله تعالى :

« يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » .

أي : لم يكن طلبهم الاستغفار ، عن صدق واعتقاد ، وإنما كان مصانعة .. وتقية لستر نفاقهم .. وأمر الله الرسول أن يسألهم سؤالاً فيه معنى النفي، حيث يقول تعالى :

« قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا » .

أي: من الذي يستطيع أن يملك دفع السوء عنكم لو أراد الله بكم ذلك .. أو يملك جلب النفع لكم ؟ والجواب : لا أحد يملك ذلك ..! ثم قال تعالى :

« بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) » .

« المخلفون » عن صحبتك في عمرتك .

أي أن الله سبحانه ، هو المطلع على السرائر ، يعلم ما يضمرونه من نفاق .. مهما صانعوا .. وأظهروا التقية .. فهو الخبير بكل أعمالهم !

ثم أوضح سبحانه السبب الحقيقي في تخلف المتخلفين عن رسول الله ﷺ : وهو اعتقادهم أن الله سوف يخذل رسوله والمؤمنين .. ويمكّن لأعدائهم .. ولن يرجع الرسول ولا المؤمنون أبداً إلى أهليهم .. وذلك ظن سيىء لا يليق بعدل الله ، ولا يتفق مع وعده للرسول والمؤمنين في النصر والتأييد ، قال تعالى :

« بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ » .

أي : زين الشيطان هذا الظن السيىء في قلوبكم .

« وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (١٢) » .

جمع بائر ، أي : هالكين ، فاسدين ، لا تصلحون لشيء من الخير .

ثم قال سبحانه متوعداً إياهم على النفاق ، وإظهارهم خلاف ما يبطنون :

« وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ » .

أي : من لم يكن باطنه كظاهره ، يعتقد بقلبه ، ما يقوله بلسانه من دعوى الإيمان بالله ، وتصديق رسوله ، فإن الله سوف يعذبه في النار ، حيث تتسعر به ، وقد أعدها الله للكافرين أعدائه .. قال تعالى :

« فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً (١٣) » .

« لن ينقلب » لن يعود إلى المدينة . « قوماً بوراً » هالكين أو فاسدين .

وأخبر سبحانه أنه مالك السموات والأرض ، والحـــاكم المتصرف فيهما ، فيغفر ذنوب من يشاء من عباده ممن سبق في علمه هدايته .. ويعذب من يشاء ممن علم ظلمه وكفرانه .. فهو الغفور لزلات عباده ، الرحيم بهم ، قال تعالى :

« وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (١٤) » .

وفي الآية التالية : يذكر سبحانه ، تطلع المتخلفين إلى مغانم خيبر ، وطلبهم أن يأذن لهم الرسول في الخروج معه إليها ، وقد وعد الله بغنائم خيبر ، أهـل صلح الحديبية ، خاصة : الذين آزروا رسوله ، واستجابوا لأمره ، قال تعالى :

« سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا » وهي مغانم خيبر « ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ » اتركونا نخرج تبعاً لكم « يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ » .

أي : يريدون بالخروج إلى خيبر ، أن يخلف الله وعده السابق في تخصيص مغانم خيبر لمن حضر صلح الحديبية ، وأمر الله الرسول أن يرد عليهم طلبهم .. قال تعالى :

« قُل لَّنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ » .

أي : مثل هذا الوعد قد سبق من الله من قبل أن يعود الرسول ومن معه

« ذرونا » اتركونا .

من الحديبية ، بأن غنائم خيبر – خاصة – لمن حضر الحديبية ، ليس لغيرهم فيها نصيب . وأخبر سبحانه عن جواب المتخلفين حين منعوا من الخروج إلى خيبر ، قال تعالى :

« فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا » .

أي : لم يكن منعهم عن الخروج إلى خيبر عن أمر الله ! وإنما كان حسداً فقط ، لئلا يصيبوا من الغنائم شيئاً .. فأكذبهم الله تعالى ، قال تعالى :

« بَلْ كَانُوا لاَ يَفْقَهُونَ إلاَّ قَلِيلاً » .

أي : ليس الأمر كما زعموا .. ولكنهم لا يعلمون ما لهم وما عليهم من الدين إلا قليلاً منهم ، وهم من صدّق الله ورسوله ..

بعد ذلك أمر الله الرسول ﷺ ، أن يعلن هؤلاء المتخلفين بأن باب الجهاد لا يزال مفتوحاً .. وأنهم سوف يندبون لقتال ومنازلة قوم أهل شدة ، وقوة في الحروب ، واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء القوم .. وليس الغرض هنا التعيين ، وإنما الغرض أن يكشف الله سبحانه أمر المتخلفين ، وكذبهم في زعمهم الرغبة في الجهاد ، قال تعالى :

« قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ » .

« أولي بأس » أصحاب شدة في الحرب .

أي : يستمر قتالهم إلى أن يسلموا فيكف عنهم .

« فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللهُ أَجراً حَسَناً » .

أي: إن يطع هؤلاء المتخلفون أمر الله ورسوله في قتال هؤلاء القوم الأشداء. فسوف يحسن لهم الأجر بأن يدخلهم الجنة .

« وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٦) » .

أي : وإن أعرضوا ، ولم يستجيبوا لأمر الله ورسوله ، كما أعرضوا وتخلفوا عن الرسول إذ دعاهم للخروج معه إلى الحديبية ، فإن الله سوف يعذبهم في الآخرة عذاباً مؤلماً بأن يدخلهم النار . .

ثم أوضح سبحانه الأعذار المبيحة للتخلف عن الخروج للجهاد ، فقال :

« لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ » .

أي : ليس على أصحاب هذه الأعذار من بأس أو مؤاخذة ، لو تخلفوا عن الجهاد . . ثم أخبر بما أعده للمجاهدين المطيعين لله ورسوله ، من النعيم في الآخرة ترغيباً في الجهاد . فقال تعالى :

« وَمَنْ يُطِعِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ » .

« حرج » إثم .

وخوف المعرضين المتخلفين عن الجهاد بما أعده لهم في الآخرة من عـــذاب النار .. قال تعالى :

« وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً (١٧) » .

ورفع الله سبحانه من مكانـــة المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، حيث أعلن رضاه عنهم ، فقال تعالى :

« لَقَدْ رَضِيَ ٱللهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ » .

علم الله ما في قلوبهم من صدق الإيمان ، والوفاء بما عاهدوا عليـــه ، فأنزل الطمأنينة على نفوسهم.

« وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (١٨) » .

أي : حيث فتح الله عليهم خيبر بعد صلح الحديبية وقريباً منه .

« وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا » .

أي : من أموال يهود « خيبر » وكانت « خيبر » ذات عقـــار وأموال .. فقسمها رسول الله ﷺ بينهم .

« وَكَانَ ٱللهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٩) » .

يعز من يشاء بطاعته ... ويذل من يشاء بمعصيته وله الحكمـــة في ذلك !

ثم قال تعالى :

« وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ».

وهي الفتوح التي تفتح للمسلمين إلى يوم القيامة .

« فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ » .

أي : عجل فتح خيبر وغنائمها لهم .. وامتنّ عليهم بأن كف عنهم أيدي أهل خيبر ، وحلفائهم ، حيث قذف في قلوبهم الرعب .. قال تعالى :

« وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ » .

وقيل: كف أيدي أهل مكة بالصلح،ثم قال سبحانه:

« وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » .

أي : ليكون كف أيدي الناس عن المسلمين وسلامتهم آية على صدق الرسول وعلى حراسة الله لعباده ، وحفظه لهم ، وليهديهم – ببركة انقيادهم لأمر الرسول وطاعتهم له – صراطاً مستقيماً ، بأن يثبتهم على الإسلام ، ويزيدهم بصلح الحديبية وفتح خيبر يقيناً بالله ، قال تعالى :

« وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً (٢٠) » .

وعدى ذلك ، فقد وعد الله المؤمنين بمغانم كثيرة أُخرى ، وفتح بلدان لم يكونوا قادرين عليها ، قال تعالى :

« وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ».

أي : علم الله أنها ستكون لهم ، وأنه سوف يفتحها عليهم ..

« وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢١) » .

أي : لا يعجزه شيء .

وعاد سبحانه يؤكد لأهل صلح الحديبية نصره لهم لو أزمع المشركون القتال .. قال تعالى :

« وَلَوْ قَاتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَارَ » ، أي لانهزموا « ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً (٢٢) » .

أي : لن يجدوا لهم من ولي يتولاهم ، أو ناصر ينصرهم ..

وتلك سنة الله الماضية في خلقه ، نصره للمؤمنين أوليائه ، وخذلانه للكافرين أعدائه .. قال تعالى :

« سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً (٢٣) » .

أي : وليس لهذه السنة الماضية من تغيير ولا تبديل ..

ثم قال تعالى ممتناً على أهل صلح الحديبية :

« وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ » .

أي : أيدي المشركين عن المسلمين ، فلم يصلوا إليهم بسوء .

« أحاط الله بها » أعدها لكم أو حفظها عليكم .

« وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ » .

أي : وكف أيدي المؤمنين عن المشركين بالحديبية لأن المراد بمكة الحرم ؛ والحديبية من الحرم ؛ ومعنى قوله « من بعد أن أظفركم عليهم » أي : أظفر المسلمين على فريق من المشركين ، هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابه ، وأرادوا أن يصيبوا منهم غرة ، فأخذوا ..! وجيء بهم إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم ..!

« وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٢٤) » .

أي : أحاط علمه ، وسمعه ، وبصره بكل ما يعمله العباد ..

وعادت الآيات تفصل في قصة صد المشركين لرسول الله ﷺ وأصحابه عن دخول « مكة » عام « الحديبية » قال تعالى :

« هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ » .

أي : والهدي محبوساً عن أن يصل إلى المحل الذي ينحر فيه ، وهو « مكة » والهدي : ما يهدى إلى الحرم من بهيمة الأنعام تقرباً إلى الله بذبحه فيه ثم قال تعالى :

« وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ » .

أي : لولا وجود رجال مؤمنين ، ونساء مؤمنات ، بين المشركين ،

(ببطن مكة) بالحديبية . (أظفركم عليهم) أظهركم عليهم وأعلاكم . (الهدي) اليد التي ساقها الرسول صلى الله عليه وسلم . (معكوفاً) محبوساً . (محله) المكان الذي يحل فيه نحره. (تطئوهم) تهلكوهم . (معرة) مضرة أو سُبة .

مستضعفين ، لم تعلموا بهم ، فيصيبهم من المؤمنين مكروه بأن يقتلوهم ، فتلحقهم بقتلهم مسبة وعار حيث يقال : قتلوا أناساً على دينهم - لولا ذلك - لسلط الله المؤمنين على المشركين فأبادوهم .. ! ثم قال تعالى :

« لِيُدْخِلَ اللهُ في رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ » .

أي : حال سبحانه بين الرسول وفتح مكة ، ليخلص المستضعفين من المسلمين من بين أظهر المشركين ، ويهدي من يشاء من المشركين إلى الإسلام ، ويُدخل الجميع في رحمته أي : في جنته ، فمن دخلها فهو مرحوم . قال تعالى:

« لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (٢٥) ».

أي : لو تميّز المؤمنون المستضعفون المقيمون بمكة عن المشركين ، لسلط الله المجاهدين على المشركين فقتلوهم .. وذلك عذابهم : في الدنيا بالقتل .. ولهم في الآخرة عذاب مؤلم في النار ..

وهذا القتل في الدنيا ، حين جعل الكفار حمية الجاهلية - أي أنفتها - في صدورهم ، فصدوا رسول الله وأصحابه عن البيت قائلين : قد قتلوا أبناءنا ، وإخواننا ، ثم يدخلون علينا .. فتتحدث العرب أنهم دخلوا رغم أنوفنا و « اللات » و « العزى » لا يكون ذلك .. أما المؤمنون ، فقد أنزل الله في قلوبهم الطمأنينة فلم تدخلهم الحمية ، فيعصوا الله بقتالهم للمشركين .. وقد أمروا بالكف عنهم ، قال تعالى :

« إذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا في قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ

(تزيلوا) تميزوا من الكفار . (الحمية) الأنفة والغضب .

فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ » فاطمأنوا للصلح « وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ » .

أي : الكلمة التي تقي قائلها الشرك ، والعذاب ، وهي « لا إله إلا الله » في قول أكثر المفسرين لأنها : تنفي الألوهية عن غير الله،وتثبتها لله الواحد الأحد ؛ وأخبر سبحانه أن المسلمين هم أحق بهذه الكلمة ، كلمة التوحيد من الكافرين .. وهم أهلها الذين يعملون بما تدعو إليه من عبادة الله وحده ، وينتهون عما تنهى عنه من عبادة غير الله في أي نوع من أنواع العبادة .. قال تعالى :

« وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٢٦) ».
أي أحاط علمه بكل الأشياء .

بعد ذلك انتقلت الآيات تذكر رؤيا رسول الله ﷺ ، عام الحديبية قبل خروجه إليها ، قال تعالى :

« لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ » .

أي : إن الله تعالى ، سوف يحقق رؤيا رسوله فهي حق وصدق ، وتفصيل الرؤية : أن رسول الله ﷺ رأى عام الحديبية في منامه ، أنه وأصحابه يطوفون بالبيت وبعض أصحابه محلق والبعض منهم مقصر ، فأخبر بذلك أصحابه ، ففرحوا .. وظنوا أن هذه الرؤيا سوف تتحقق عام الحديبية .. فلما تم الصلح ، صلح الحديبية ، ورجعوا إلى المدينة ، ولم يدخلوا مكة ، شق عليهم ذلك ، فأنزل الله تعالى « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق » فهي رؤيا حق ، وقد تحققت فعلا ، ودخل رسول الله ﷺ وأصحابه المسجد الحرام في العام

(كلمة التقوى) كلمة التوحيد والاخلاص .

الذي بعد عـــام الحديبية ، معتمرين آمنين .. لم يعرض لهم أحـد بسوء .. قال تعالى :

« لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ » .

وأخبر سبحانه أنه علم – من المصلحة في الصلح عام الحديبية ، وفي عـــدم دخول الرسول مكة في ذلك العـــام – ما لم يعلمه أصحاب الرسول الذين شق عليهم عدم دخولهم مكة .. قال تعالى : « فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا » .

وأخبر سبحانه أنه جعل لهم قبل دخولهم الحرم ، فتحاً قريباً يتقوون به .. قيل : المراد بالفتح ، فتح خيبر وقيل : صلح الحديبية . قال تعالى :

« فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (٢٧) » .

ثم قال تعالى :

« هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ » .

أي : أرسله بالدين الذي فيه هداية العباد إلى صراط الله .

« وَدِينِ ٱلْحَقِّ » .

أي : الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده .

« لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ » .

أي : أرسل الله الرسول بهذا الدين ، ليعليه على جميع الأديان .

« وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً (٢٨) » .

أي حسب الرسول بأن يشهد له ربـــه أنه مرسل من عنده بخير الأديان ، صادق فيما يخبر به ، ثم قال تعالى :

« مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ » .

أي : مرسل من عند الله ؛ وفي ذلك تأكيد لرسالته .. وعقَّب على ذلك بذكر أوصاف المدح ، والثناء لأصحابه ، فقال :

« وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » .

وصفهم سبحانه بالشدة والغلظة على الـكافرين ، وبالرحمة ولين الجـانب فيما بينهم .

« تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً » .

ووصفهم أيضاً بكثرة العبادة ، ومن أفضل العبادة الصلاة ، ودوام الركوع ، والسجود ، يرجون بذلك ثواب الله ورضاه عنهم ، ولهم من كثرة عبادتهم ، وطول سجودهم لله علامات في وجوههم ، قال تعالى :

« سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ » .

وذكر المفسرون عن هذه العلامات أقوالاً منها أن المراد بها : استنارة وجوههم من كثرة ما صلوا .. ومنها : أن السجود أورثهم الخشوع ، والصمت الحسن الذي يُعرفون به .. ثم قال تعالى :

« ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ » .

« سيماهم » علامتهم . « مثلهم » صفتهم .

إشارة إلى أن هذه الأوصاف لأصحاب الرسول ، مثل ما وصفوا بــه في التوراة ، وقوله تعالى :

« وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنْجِيلِ » .

أي : أما وصفهم في الإنجيل فكما أخبر الله في الكلمات التالية .. قال تعالى:

« كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ » .

أي : كمثــل زرع أخرج شطأه ، والشطء : النبت الذي يخرج من الزرع ويتفرع في جانبيه .

« فَآزَرَهُ » أي : قوّى ذلك الشطء الزرع « فَاسْتَغْلَظَ » أي : تحول الزرع من الدقة إلى الغلظ « فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ » أي: استقام ذلك الزرع على أصوله « يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ » .

أي : بعد أن صار الزرع على هــذه الصفة من النماء والقوة ، أصبح يعجب زراعه لحسنه ، وبهائه ، وحسن هيئته .. وكذلك أصحاب رسول الله ﷺ ، كانوا في أول الإسلام قلة ، ثم كثروا .. وآزروا الرسول ، ونصروه ، فهم : كالنبت الذي خرج على أشطاء الزرع فتقوّى به ، وشد أزره .. وقوله تعالى :

« لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ » .

« أخرج شطأه » فراخه المتفرعة في جوانبه . « فئازره » قوّى ذلك الشطء الزرع . « فاستغلظ » فصار غليظاً . « فاستوى على سوقه » فاستقام على قضبانه .

أي : إنما كثّرهم ، وقوّاهم ؛ ليكونوا غيظاً للكافرين .. وختم سبحانه السورة ، بالوعد الكريم الصادق في غفرانه لذنوب عباده المؤمنين الذين **يعملون** الأعمال الصالحة .. وهم جميع الصحابة ومن تبعهم بإحسان من المؤمنين **إلى يوم** القيامة ؛ قال تعالى :

« وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٢٩) » .

تفسير سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) » .

أوضح سبحانه بهذه الآية لعباده المؤمنين المسلك الذي يجب أن يسلكوه مع رسوله « محمد » ﷺ ، احتراماً لمقامه ، وتوقيراً له .. ومعنى التقدم بين يدي الله ورسوله : عدم التسرع بالقول أو الفعل قبل رسول الله ﷺ ، ويجب أن يكون المؤمنون تبعاً له في كل قول أو فعل ، وألا يجترءوا على فعل شيء إلا بعد أن يحكم الله ورسوله ، ويأذنا فيه ، ثم حثهم سبحانه على مراقبته ، والخوف منه فلا يضيعوا حقوقه ، أو يخالفوا أمره ، فهو السميع لأقوالهم ، العليم بنياتهم ، وأفعالهم ..

ثم قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ » .

أي : في حالة مشاركتكم معه في الحديث .

« وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ » .

« لا تقدموا » لا تقطعوا أمراً من الأمور .

أي : في حالة مخاطبته، يجب أن لا ترفعوا أصواتكم عن صوته، كما يخاطب الند نظيره، لما في ذلك من الجفوة، وعدم استشعار الحرمة لمقامه وقوله تعالى:

« أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (٢) » .

أي : خشية أن يبطل الله أعمال من يفعل ذلك من المؤمنين، وهو لا يشعر أنه ارتكب محظوراً .

ثم قال تعالى :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ » .

أي : يخفضون أصواتهم عنده، احتراماً لمقامه وتوقيراً له .

« أُوْلَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ » .

أي : اختبرها، وأخلصها للتقوى .

« لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) » .

وعدهم الله على تأدبهم مع رسوله بغفران ذنوبهم، وتكفير سيئاتهم وأعظم الأجر لهم ..

وذم سبحانه من يخالف هذا المسلك، موجهاً الخطاب لرسوله فقال :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤) » .

(تحبط أعمالكم) تبطل أعمالكم . (يغضون أصواتهم) يخفضونها ويتخافتون بها . (امتحن الله قلوبهم) اختبرها فأخلصها .

الحجرات : جمع حجرة ، وهي منازل نسائه ﷺ .. نزلت هـذه الآية في وفد قدم على رسول الله ﷺ وأخذوا يدعونه في جفوة قائلين : يا محمد ! أخرج إلينا .. أخبر الله سبحانه أن أكثر هؤلاء ليس لهم عقول ترشدهم إلى التأدب مع الرسول ..

ثم أرشد سبحانه إلى ما يجب اتباعه ، فقال :

« وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ » .

أي: لو أنهم انتظروا خروجك إليهم دون أن يزعجوك برفـع أصواتهم ومناداتهم لكان ذلك أفضـل لهم ! ووجههم سبحانه إلى الاستغفار مما فرط منهم بقوله :

« وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) » .

أي: يغفر زلات عباده ، وهو رحيم بهم .

ثم ذكر سبحانه لعباده قاعدة عامـة في وجوب التثبت من رواية خبر الفاسق ، وهو من يخرج على أوامر الله بترك ما أمره ، وارتكاب ما نهى عنه ، قال تعالى :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا » .

أي: تثبتوا ، واطلبوا البيان والمعرفة ، ولا تأخذوا بقوله لأول وهلة.

« أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ » .

أي : لئلا تعرضوا لقوم بالأذى ، أو القتل خطأ ، وهم أبرياء .

« فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) » .

أي : فتندموا بعد ذلك على خطئكم .

ثم قال تعالى :

« وَٱعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ »أي مقيم بينكم «لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ » .

أي : لو يطيعهم الرسول ، ويأخذ بكل ما يرونه ، أو في كثير منه ، مما جانب فيه المخبرون الواقع ، لوقعوا في الإثم والهلاك .. لأن العنت ، هو الوقوع في أمر شاق .. ثم قال تعالى :

« وَلَـٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ » .

أي : جعل الإيمـــان أحب شيء إليهم ، وحسّنه في قلوبهم .. ومن لازم الإيمان الصدق في رواية الأخبار .

« وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ » أي كره إليهم جحد النعيم « وَٱلْفُسُوقَ ».

أي : وكرّه إليهم الخروج عن أمر الله بارتكاب المحرم،ومن ذلك الكذب.

« وَٱلْعِصْيَانَ » .

أي : وكرّه إليهم العصيان ، والمراد به جميع المعاصي .. وأخبر سبحانه أن من اتصف بهذه الصفات : صفات الحمـــد ، هم الراشدون ، أي : الذين رشدوا باتباع الهدى ، وكان رشادهم واهتداؤهم فضلاً من الله ، ونعمة عليهم ، قال تعالى :

« لعنتم » لأثمتم .

« أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِّنَ ٱللهِ وَنِعْمَةً وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) » .

عليم : بأحوال عباده ؛ حكيم : فيما يشرعه لهم .

ثم عقّب على ذلك بالحث على إصلاح ذات البين ،فيما لو وقعت خصومة بين طائفتين من المؤمنين بلغت حد المقاتلة .. قال تعالى :

« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا » .

ي : تدخلوا في الصلح بالحسنى .

« فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ » .

أي : تجاوزت إحداهما على الأخرى بغير حق ، وأبت الصلح ..

« فَقَاتِلُوا ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ ٱللهِ » .

أي : كونوا يداً واحدة في إخضاع الفئة الباغية المعتدية، حتى تقسروها على الرجوع إلى حكم الله وترضى به ..

« فَإِن فَاءَتْ » أي رجعت إلى الحق « فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا » .

أي يجب أن يكون الصلح قائماً بين الفئتين المتقاتلتين على أساس العدل ، وتحكيم كتاب الله ..

« إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٩) » .

(بغت) اعتدت واستطالت . (تفيء) ترجع . (أقسطوا) أعدلوا في كل أموركم . (المقسطين) العادلين في أحكامهم .

أي : يحب العادلين .. وفي ذلك ، ترغيب في العدل ، وإقامته بين الناس .
وأوضح سبحانه أخوة الإسلام المقتضية للترابط بقوله :

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » .

أي : من مقتضى أخوة الإسلام أن يسود الوئام بين جميع الإخوة ، فإن حدث انشقاق في صفوف المسلمين ، فمن الواجب تلافيه بالإصلاح .. وأمر سبحانه ، بالتزام تقواه بفعل ما أمر به ومن ذلك : إصلاح ذات البين وترك ما نهى عنه ومن ذلك الشقاق ، والفرقة بين المسلمين ، قال تعالى :

« وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) » .

أي : إن تقوى الله سبيل إلى رحمته وبلوغ رضوانه .

ثم ذكر سبحانه في الآيات التالية ، جملة من آداب المعاشرة ، ووجه إليها المؤمنين لتتم بها الألفة بينهم .. بدأها بقوله :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ » .

أي : لا يحتقر ، ولا يسخر ، أو يهزأ المؤمنون بعضهم من بعض ، فلعل المسخور منه والمحتقر ، يكون أفضل من الساخر الهازىء .

« وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰٓ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ » .

أي : وكذلك النساء ، لا يحل لهن أن يسخرن ، ويحتقرن بعضهن ..

« لا يسخر » لا يهزأ .

فالحكم للرجال والنساء سواء ، والدين ، وأحكامه ، والتزاماته يخاطب بها النساء ، كما يخاطب بها الرجال ، ثم قال تعالى :

« وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ » .

اللمز : العيب ، فهي أن يعيب المسلم أخاه المسلم بقول أو إشارة .

« وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ » .

أي : لا يدع المسلم أخاه بلقب يكرهه ، أو بذنب قد تاب منه ، يعيره به ، أو يدعوه باسم الحيوانات ، كالكلب والحمار ، ونحوهما استنقاصاً له .. ثم قال تعالى :

« بِئْسَ ٱلاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ » .

أي : بئس أن يدعى المسلم بالفسق ، أو بأية نقيصة من النقائص بعد اتصافه بالإسلام ، ثم حذر سبحانه المتعادين في ارتكاب ما نهاهم عنه من السخرية واللمز والتنابز بالألقاب فقال :

« وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) » .

أي : الظالمون لأنفسهم حيث حمّلوها ذلك الإثم والمحذور ..

وعقب على ذلك سبحانه ، بالنهي عن ظن السوء بالمسلمين فقال :

« يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ » .

أي : ترفّعوا ، وابتعدوا عن الظنون السيئة بخيار المسلمين .

« إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » .

(تلمزوا أنفسكم) لا يعيب بعضكم بعضاً . (لا تنابزوا بالألقاب) لا تتداعوا بالألقاب المستكرهة . (كثيراً من الظن) هو ظن السوء بأهل الخير .

أي : بعض هذه الظنون السيئة ، ذنب يستحق صاحبه العقوبة فكيف بالكثير منها ، ونهى سبحانه عن التجسس ، وهو تتبع عورات الناس ، وما ستروه من أمورهم ، قال تعالى :

« وَلاَ تَجَسَّسُوا » .

ونهى أيضاً عن الغيبة ، وهي كما عرّفها الحديث الشريف : ذكرك أخاك بما يكره ، قال تعالى :

« وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً » .

وشبه سبحانه الغيبة بأكل لحم ابن آدم ميتاً ، وأورد في ذلك استفهاماً تقريرياً قائلاً :

« أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ » .

أي : إذا كنتم لا تحبون ذلك بل تكرهونه لأن النفس تعافه ، فاكرهوا أن تغتابوا إخوانكم ، فأكل لحم المسلم ميتاً كغيبته حياً من حيث البشاعة ! ثم أمر سبحانه بالتزام تقواه ، ورغّب في التوبة بقوله :

« وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) » .

يقبل توبة التائبين ، ويرحمهم ، فلا يؤاخذهم بذنوبهم..

ثم أوضح سبحانه تساوي الناس في البشرية ، وفي نسبتهم لآدم وحواء قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ » .

(لا تجسسوا) لا تتبعوا عورات المسلمين .

وذكر سبحانه : أنه فرّع من هذا الأصل شعوباً وقبائـــل ، فالشعوب : جمع شعب ، وهو الجمع العظيم الذي ينسب إلى أصل واحد ، ويليه في المرتبـة القبيلة ، والغرض من هذا التفريـع حصول التعارف بينهم ، فتوصل الأرحـام وتحفظ الأنساب وتتضح نسبة كل فرد فيقال : فلان إبن فلان من قبيلة كذا .. ولم يكن الغرض من الانتساب إلى الشعب أو القبيلة العصبية أو التعـاظم بالآباء والقبائل . . قال تعالى :

« وَجعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقبائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُم عِنْدَ اللهِ أتقَاكُمْ » .

يكون التفاضل عند الله بقدر ما في المرء من تقوى لله ، وطاعـة لأوامره لا بالشرف ، ولا بالنسب والحسب .

« إنَّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ (١٣) » .

عليم بأحوال عباده ، خبير بكل اتجاهاتهم وتصرفـاتهم . وانتقلت الآيات بعد ذلك : يذكر الله فيها خبر قوم من الأعراب - قيل : هم بنو أسد بن خزيمة - أظهروا الإسلام طمعاً في الأخـذ من الغنيمة .. وكانوا يمنون على رسول الله ﷺ بإسلامهم .. قال تعالى :

« قالَتِ الأعرابُ آمنَّا » .

أي : صدقنا ، واطمأنت قلوبنا بالدين .. فأمر الله الرسول أن يرد على هذا الزعم ، قال تعالى :

« قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قولُوا أسْلَمْنا » .

أي : لم تصدق قلوبكم ولكنكم أظهرتم الإسلام نفاقاً ، وانقدتم بالعمل انقياداً ظاهراً .

« وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ » .

أي : حتى الآن ... لم يدخل الإيمان قلوبكم !

« وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » .

أي في صدق الإيمان ، وصلاح العمل ، والإخلاص فيه ...

« لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً » .

أي : لا ينقصكم من أجور أعمالكم شيئاً .

« إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) » .

غفور لذنوب عباده ، رحيم بهم .

وأوضح سبحانه في الآية التالية وصف المؤمنين الصادقين في إيمانهم فقال :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا » .

أي : صدقوا بألوهية الله ورسالة رسوله ، ولم يشكوا في صدق إيمانهم ودينهم .

« وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » .

أي قاتلوا أعداء الله بأموالهم يبذلونها في سبيل الله طيبة بها نفوسهم وجاهدوا - إلى جانب جهادهم بالأموال - بالأنفس يبذلونها ابتغاء رضوان

(ولا يلتكم) لا ينقصكم .

الله . ثم قال تعالى :

« أُولَـٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) ».

أي : من كانت هذه أوصافه ، فهو بحق صادق في إيمانه . .

ووبخ سبحانه الأعراب بزعمهم الإيمان فقال :

« قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ » .

العلم هنا : بمعنى الاخبار ، المعنى : أتخبرون الله بما في ضمائركم ، وما تزعمونه من دعوى الإيمان والدين ؟!

« وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) » .

أي : علمه محيط بكل شيء في السموات والأرض . . لا يخفى عليه مثقال ذرة . . فهل يخفى عليه حقيقة دعواكم في الإيمان والاطمئنان به ؟!

ثم رد عليهم سبحانه في امتنانهم على الرسول ﷺ بالإسلام والمتابعة له على دينه ، قال تعالى :

« يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ » .

يمنون عليك ، لأنهم أسلموا . قل : لا تمنوا علي بذلك ! والخطاب موجه إلى الرسول ﷺ .

« بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) » .

(اتعلمون الله بدينكم) أتخبرونه بقولكم آمنا .

أي : أن المنة لله عليكم في هدايته لكم للإيمان إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم مؤمنون به .

وختم السورة سبحانه بتقرير سعة علمه .. وأنه يعلم مـا غاب وخفي من أمر السموات والأرض وهو البصير بكل مـا يعمله العباد سراً أو جهراً .. قال تعالى :

« إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) » .

تفسير سورة ق

بسم الله الرحمن الرحيم

« قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) » .

افتتح سبحانه هذه السورة بحرف من الحروف المقطعة كما افتتح غيرها مثل « ص » و « الم » و « ن » والله أعلم بمراده من بدء بعض السور بهذه الحروف وقوله تعالى : « والقرآن المجيد » أي : الشريف الكريم الكثير الخير ، ثم ذكر سبحانه تعجب كفار قريش من إرسال رسول إليهم من جنسهم ومن قبيلتهم ، ينذرهم أي يخوفهم من عذاب الله إذا تمادوا في كفرهم .. ثم قال تعالى :

« أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) » .

أي : الرجعة بعد الموت مستحيلة، وبعيدة الوقوع ! . ثم رد الله عليهم بقوله :

« قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ » .

أي علم الله سبحانه كل ما تأكله الأرض من أجسادهم .. ومن كان عنده علم ذلك لا يعجزه أن يعيده إلى الحياة بعد الموت .

« وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) » .

(رجع بعيد) رجوع إلى الحياة غير ممكن .

أي : عند الله سبحانه كتاب يحفظ كل الأشياء ، ومن ذلك أجزاءهم وعددهم .. فلا يعجزه أن يرجع إليهم الحياة بعد أن صاروا رميماً — وقيل : « حفيظ » أي : محفوظ من التبديل والتغيير ، ثم قال تعالى :

« بَلْ كَذَّبُوا بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) » .

أي بل جاءوا بأفظع من تعجبهم من إرسال رسول إليهم ، وبعثهم بعد الموت وهو تكذيبهم بالحق ، أي القرآن وما تضمنه من الإخبار بالحشر والمعاد وغير ذلك .. فهم « في أمر مريج » أي : مضطرب ، ومختلط . فتارة يقولون عن القرآن : انه سحر وعن الرسول انه ساحر ، وتارة يقولون عن الرسول : انه كاهن .

بعد ذلك ، أخذ سبحانه يسرد الأدلة الواضحة على قدرته العظيمة .. يستنتج منها إثبات البعث ، قال تعالى :

« أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا » .

أي كيف رفعها من غير عمد .

« وَزَيَّنَّاهَا» أي: أودع فيها النجوم زينة لها« وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦)».

أي : وليس فيها شقوق « وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا » أي بسطها « وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ » أي : جعل فيها الجبال لئلا تميد وتضطرب .

« وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) » .

أي وأخرج فيها من جميع أنواع النبات ما يسر الناظر بحسن منظره ..

(أمر مريج) مختلط مضطرب ملتبس عليهم . (فروج) فتوق وشقوق. (الأرض مددناها) بسطناها للاستقرار عليها . (رواسي) جبالاً ثوابت . (زوج بهيج) صنف حسن نضر .

ومن قدر على ذلك كله ، فهو قادر على بعث الأجساد وإعادة الحياة إليها ، ثم قال تعالى :

« تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) » .

أي : فعل ذلك للتبصير وليكون ذكرى يذكر بها كل عبد منيب أي : راجع إلى ربه ، خائف وتائب من ذنوبه .

واستمر سبحانه في تعداد نعمه على العباد فقال :

« وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا » .

أي : مطراً ، وصفه بالبركة لكثرة خيره ومنفعته .

« فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ » .

أي : أنبت بالمطر الحدائق والبساتين ، ونحوها .

« وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) » .

أي : أنبت بالمطر سائر الحبوب كالقمح ، والشعير ، وسائر الحبوب التي تحصد . .

« وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) » .

أي : وأنبت بالمطر أيضاً النخل طويلات شاهقات لها ثمر وحمل ؛ والطلع أول ما يظهر من الثمر قبل أن ينشق ؛ ومعنى نضيد أي منضود بمعنى : متراكب على بعضه من كثرته . . ثم قال تعالى :

« رِزْقًا لِلْعِبَادِ » .

(عبد منيب) راجع إلينا بالتوبة والطاعة . (حب الحصيد) حب الزرع الذي يحصد . (النخل باسقات) طوالاً أو حوامل . (طلع) ثمرها ما دام في وعائه . (نضيد) متراكم بعضه فوق بعض .

أي : كل هذه النعم جعلها رزقاً للخلق ، ثم قال :

« وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١) » .

أي : أحيا بالمطر أرضاً مجدبة ، فأنبت العشب ترعاه الماشية ،ومثل سبحانه لإحياء الموتى ، وبعثهم من القبور ، بإحيائه للأرض المجدبة فقال : « كذلك الخروج » أي من القبور .

بعد ذلك ، أخذت الآيات التالية تستعرض الأمم المكذبة لرسل الله .. يذكر الله فيها ما أنزله بهم من نقمة . وفي ذلك تسلية لرسول الله عن تكذيب المكذبين له ، وترهيب لمن كذبه خشية أن يصيبه ما أصاب الأمم المكذبة من العذاب .. قال تعالى :

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) » .

أي كذبت قبل قريش .. « الرس » البئر التي لم تطو أي : لم تبن ،واختلف المفسرون في تحديد موضع البئر .. وفي النبي المرسل إلى أصحاب الرس وليست العبرة في تحديد موضعهم ، أو تعيين نبيهم ؛ وإنما العبرة بإهلاكهم لما كذبوا الرسول المرسل إليهم، ثم قال تعالى :

« وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) » أي أمته « وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ » .

الأيكة : واحد الأيك ، وهو الشجر الكثير الملتف .. كذبوا رسولهم شعيباً ، فأهلكهم الله .

« أصحاب الرس » البئر : رموا نبيهم في البئر . « أصحاب الأيكة » سكان الغيضة الكثيفة الملتفة الشجر .

« وَقَوْمُ تُبَّعٍ » وهو « تُبَّع » الحميري باليمن « كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) » .

أي : كل أولئك كذبوا رسل الله إليهم ،فاستوجبوا ما توعد الله به المكذبين لرسله من العذاب ..

وعاد سبحانه يقرر البعث بقوله :

« أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ » .

أي : أفعجزنا عن الخلق الأول أي ابتداء الخلق حتى يتوهم منكرو البعث عجزنا عن إعادته وبعثه ، ثم قال تعالى :

« بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) » .

« في لبس » أي في شك ، والخلق الجديد:المراد به البعث بعد الموت وحيث كان البعث بعد الموت مخالفاً للعادة المألوفة أنكروه ، وصاروا في شك منه .. ثم عرض سبحانه لخلق الإنسان ، ووقوفه على خطرات قلبه ، وما تحدثه به نفسه ، وفي ذلك دلالة على قدرته وسعة علمه ، قال تعالى :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) ».

أقرب إليه من كل شيء ، من حبل الوريد .. و « حبل الوريد »:عرق كبير في العنق والمراد : قرب علم الله من العبد ، وإطلاعه على كل أمر من أموره . ثم أخبر سبحانه عن الملكين الموكلين بإحصاء وكتابة أعمال العبد فقال :

« قوم تبع » الحميري ملك اليمن . « أفعيينا بالخلق » أفعجزنا عنه . « في لبس » خلط أو شبهة . « حبل الوريد » عرق كبير في العنق .

« إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) ».

أي : عن اليمين ملك ملازم وقاعد يكتب عليه الحسنات، وعن الشمال ملك ملازم وقاعد يكتب عليه السيئات .

« مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) » .

أي : ما يتلفظ العبد بكلمة إلا سجلها عليه « رقيب » بمعنى : ملك حافظ لها « عتيد » أي : حاضر أينما كان !

وأخذت الآيات بعد ذلك تصف المرحلة الأخيرة لنهاية بني آدم ، ومـــا يكون بعدها من البعث والحساب والجزاء .. قال تعالى :

« وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ » .

تلك حالة المحتضر الذي نزل به الموت يعـاني سكراته .. أي : شدائده وكربه فتكشف له عن حقيقة الموت الذي كان يحيد ، أي : يفر منه ويحاول أن يبتعد عنه .. قال تعالى :

« ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) » .

وقيل : تكشف له سكرات الموت وما يؤول إليه أمره من سعادة وشقاء . ثم ذكر سبحانه البعث بقوله :

« وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ (٢٠) » .

أي : حين ينفخ في الصور نفخة البعث ، ذلك اليوم هو يوم الوعيد ، أي : اليوم الذي يحقق فيه الوعيد للكفار بالعذاب .. وأخذ يفصل سبحانه في كيفية ذهاب الناس إلى المحشر فقال :

« يتلقى المتلقيان » يثبت ويكتب الملكان . « قعيد » ملك قاعد . « رقيب عتيد » حافظ لأقواله معد حاضر . « سكرة الموت » شدته وغمرته . « تحيد » تفر وتهرب.

« وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) » .

أي معها ملك يسوقها ، وآخر يشهد عليها بأعمالها ..

« لَّقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا » .

أي : في تشاغل عما تعانيه اليوم من الأهوال والشدائد ..

« فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) » .

أي : كشف عنك ما كان يغطي عينيك وقلبك وبصرك في الدنيا ..فأصبح بصرك اليوم نافذاً قوياً ، يبصر ما كنت تنكره في الدنيا.

ثم أخبر سبحانه عن الملك الموكل بعمل الإنسان يحصيه عليه ، فقال :

« وَقَالَ قَرِينُهُ هَـٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) » .

أي هذا الذي حفظته عليه من الأعمال معد محضر بلا زيادة ولا نقصان . وقيل بل الملك الذي يسوق ابن آدم يخاطب الرب ويقول : هذا ابن آدم الذي وكلتني به قد أحضرته .. وعندئذ يأمر الله الملكين : السائق ، والشهيد ، أن يلقيا في جهنم كل كفار معاند للحق ، قال تعالى :

« أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) » .

وأخذ سبحانه يعدد في أوصاف هذا الكفّار العنيد فقال :

« مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ » أي يمنع الحق الواجب عليه في ماله ، وهو الزكاة.. لا يخرجها ولا يسخو بصدقة « مُعْتَدٍ » .

أي متجاوز للحد فيما ينفقه ، وقيل : معتد ظالم .. لا يقر بالتوحيد .

« غطاءك » حجاب غفلتك . « حديد » نافذ قوي . « عنيد » شديد العناد والمجادلة للحق .

« مُرِيبٍ (٢٥) » .

أي : في التوحيد ، فيجعل مع الله إلهاً آخر .. يشركه مع الله في عبادته .. يدعوه ، أو يستعين به ، أو يرجوه ويخافه ، أو يستغيث به ، ويتوكل عليه ، أو يذبح له وينذر ، فهو جدير بأن يقذف في العذاب الشديد في جهنم ، قال تعالى :

« ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ (٢٦) »

وعندما يؤمر بإلقاء الكافر في النار ، يحتج قرينه أي : شيطانه الذي كان يغويه في الدنيا قائلاً : ما أخبر الله به حيث يقول :

« قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ » .

أي : يتبرأ منه ويقول : يا رب لم أكن لأضله .

أي : كان في نفسه ضالاً قابلاً للباطل .

« وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) » .

وعندما يطول الجدل بين الإنسي وقرينه الجني بين يدي الجبار ، فالإنسي يقرر أن الشيطان سبب إضلاله ، والشيطان يزعم غير ذلك .. عندئذ يقطع الله الجدل بينهما والخصام بقوله :

« قَالَ » أي سبحانه « لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) » .

أي : قدمت إليكم بالإنذار على لسان الرسل وأنزلت الكتب .. فقامت بذلك عليكم الحجة ، ثم قال تعالى :

(مريب) شاك في دينه . (ما أطغيته) ما قهرته على الطغيان والغواية .

« مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ » .

أي : لا تبديل عنـــدي لقولي ، ولا تغيير لقضائي الذي قضيته بتعذيب الـكافرين ، وملء جهنم بهم .

« وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) » .

أي : لست أظلم أحداً فأعاقبه من غير جرم .. قال تعالى :

« يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) » .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : « يخبر الله تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة : « هل امتلأت » وذلك لأنه تبارك وتعالى وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين ، فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها وهي تقول « هل من مزيد » أي : هل بقي شيء تزيدونني ؟! هذا هو الظاهر من سياق الآية وعليه تدل الأحاديث » .

وبعد أن ذكر سبحانه تسعر النار بأعدائه ، ذكر الجنة ودنوّها لأوليائه .. قال تعالى :

« وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) » .

أي : قربت الجنة ، وأدنيت من المتقين بحيث ينظرون إليها قبل دخولها .. ويقال لهم :

« هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) » .

أي : هذا الذي تشاهدونه ، هو ما كان يوعد به كل رجاع عن ذنوبه

(أزلفت الجنة) قربت وأدنيت . (أواب) رجاع إلى الله بالتوبة .

إلى طاعة الله ورضوانه و « حفيظ » أي حافظ لأوامر الله فيفعلها .. ولنواهيه فيتركها .. واستمر سبحانه في وصف من يستحق الجنة فقال :

« مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) » .

أي : خاف الله في السر حيث لا يراه أحد إلا الله فأطاعه — ولقي الله يوم القيامة بقلب منيب ، أي خاضع إليه .

« ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ (٣٤) » .

أي : يقال لأهل هذه الصفات : ادخلوا الجنة بسلامة من العذاب والهموم ، وقيل : بسلام من الله ومن ملائكته وقد كتب الله لهم فيها الخلود ولا يخرجون منها ولا يموتون .

وأخبر سبحانه أن لهم في الجنة كل ما يطلبونه ويشتهونه من النعيم المقيم ولهم زيادة من النعيم من عند الله مما لم يسألوه أو يخطر لهم على بال .. قال تعالى :

« لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) » .

وقيل : إن المراد بالمزيد هو النظر إلى وجه الرب الكريم ، يتمتعون به كما يحجب الكفار عن رؤيته .

وانتقلت الآيات بعد ذلك إلى تخويف قريش بأس الله ونقمته كما انتقم من الأمم المكذبة ممن كان قبلهم . وقد كانوا أشد منهم قوة ، قال تعالى :

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ » أي : كثيراً ما أهلك الله قوماً « هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً » أي : أكثر من قريش قوة وبأساً

(بقلب منيب) مقبل على طاعة الله . (كم أهلكنا) كثيراً أهلكنا . (قرن) أمة . (بطشاً) قوة أو أخذاً شديداً في كل شيء .

« فَنَقَّبُوا فِي ٱلْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) ».

أي : طوفوا واضربوا في الأرض ابتغاء المكاسب أكثر مما تصنع قريش .. فهل كان لهم من محيص ، أي : من مفر من قضاء الله ؟ حين نزل بهم، وهل نفعهم ما جمعوه من أموال في رد العذاب ؟!

ثم وجه سبحانه الأنظار إلى أخذ العبرة من إهلاك المكذبين والاتعاظ بمصيرهم فقال :

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) » .

أي : لعبرة لكل صاحب قلب واع ، وقيل لكل صاحب عقل ، واستمع القرآن واستمع ما يلقى إليه من وعظ لا يحدث نفسه بغيره ، فهو شهيد ، أي : حاضر القلب ، ليس بغافل ، ولا ساه .

وعاد سبحانه يقرر البعث عن طريق الاستنتاج واستخدام العقول في التفكير فقال :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) » .

أي : لم يصبه من إيجاد هذا الخلق العظيم تعب ولا إعياء .. ومن قدر على هذا الخلق العظيم ولم يصب منه تعب ولا إعياء .. فهو قادر على إحياء الموتى لن يعجزه ذلك ..

(فنقبوا في البلاد) طوفوا في الأرض ضد الموت . (محيص) مهرب ومفرق الموت .
(لغوب) تعب وإعياء .

ثم أمر الله رسوله بالصبر على أذى المكذبين من قومه وما يرمونه بـه .. كما أمره بالتسبيح قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، قال تعالى :

« فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) » .

أي : صلِّ حمداً لله ، فالمراد بالتسبيح الصلاة ، والمراد بما « قبل طلوع الشمس » صلاة الصبح وبما « قبل الغروب » صلاة العصر .

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ » .

وصل من الليل ، والمراد بهذه الصلاة صلاة المغرب، والعشاء ، وقيل المراد بها التهجد ، وصلاة النافلة في الليل .

« وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) » .

قيل : المراد بذلك التسبيح في أدبار الصلوات أو النوافل بعد المكتوبات .

ثم أمر الله الرسول ﷺ — والأمة معنية بالخطاب — قائلا :

« وَاسْتَمِعْ » قيل : المعنى أي : انتظر « يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) » .

والمنادي هو إسرافيل الذي ينفخ في الصور .. قيل : إنما وصفه بالقرب لأنه يسمعه جميع الخلق ، وقيل : المكان صخرة بيت المقدس .

« يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ » .

أي : يسمعون النفخة الثانية تأتي بالحق أي البعث الذي كذب به الكافرون .

(سبح بحمد ربك) نزهه تعالى حامداً له . (أدبار السجود) أعقاب الصلوات .
(يسمعون الصيحة) نفخة البعث .

« ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) » .

أي : ذلك اليوم ، هو يوم الخروج من القبور .

ثم قرر سبحانه كال قدرته على بدء الخلق وإعادته بعد الموت فقال :

« إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) » .

يحيي سبحانه أي : يوجد الخلق في الدنيا ويميتهم فيها عند انقضاء آجالهم ، وإليه المـآل والمرجع في الآخرة للحساب والجزاء ، ثم قال تعالى :

« يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً » .

أي : يخرجون سراعاً من القبور يوم تنفلق الأرض عنهم .

« ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) » .

أي : إعادة الموتى إلى الحياة ، وحشرهم للحساب هيّن ويسير على الله .

ثم أخبر سبحانه عن إحاطة علمه بمـا يقوله المشركون في تكذيبهم لرسول الله ﷺ ، قال تعالى :

« نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ » .

أي : لست بالذي تجبرهم على الهدى ، وتقسرهم على الإسلام ، وإنمـــا بعثت مبلغاً ومذكراً ، وأمره سبحانه أن يستمر على تذكيره ووعظه بالقرآن ، وإنما يتذكر ويتعظ بالقرآن من يخاف الله ووعيده للكافرين بالعذاب الأليم ،قال تعالى:

« فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) » .

« تشقق » تنفلق . « سراعاً » مسرعين إلى الداعي . « بجبار » بوال تقهرهم على الإيمان .

تفسير سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً (١) فَالْحَامِلاَتِ وِقْراً (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً (٤) » .

هذه جملة أقسام أقسم الله بها – ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته – أما المخلوق فلا يجوز له أن يقسم إلا بالله ربه – فأقسم سبحانه بـ (الذاريات) وهي الرياح تثير التراب وتذروه ، أي تفرقه في الفضاء . وأقسم بـ (الحاملات وقراً) السحاب يحمل حملاً ، أي يكون مثقلاً بالماء . وأقسم بـ (الجاريات يسراً)السفن تجري في الماء جرياً سهلاً – وأقسم بـ (المقسمات أمراً) الملائكة تنزل بأمر الله ؛ تقسم بين العباد ما أمرت بقسمته من الأمطار والأرزاق والآجال؛وكل ذلك يدل دلالة واضحة على قدرة الله وكمال صنعه . ثم ذكر سبحانه المقسم عليه وأخبر أن الجزاء على الأعمال والحساب عليها واقع لا محالة ؛ قال تعالى :

« إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ » .

أي الحساب والجزاء « لَوَاقِعٌ (٦) » .

ثم كرر سبحانه القسم بنوع آخر من مخلوقاته ، فأقسم بالسماء ذات الحبك ؛

(والذاريات ذرواً) أقسم بالرياح تذرو التراب وغيره . (فالحاملات وقراً) السحب تحمل الأمطار . (فالجاريات يسراً) السفن تجري بسهولة في البحار . (فالمقسمات أمراً) الملائكة تقسم المقدرات الربانية . (إنما توعدون) من البعث (جواب القسم) . (الدين) الجزاء .

أي ذات الحسن والبهاء ، والخلق المستوي ، ليوجه الأنظار بهذا القسم إلى اضطراب المشركين في أقوالهم عن الرسول وعن القرآن – فقالوا عن الرسول انه ساحر ، وقالوا إنه مجنون – وقالوا عن القرآن إنه سحر أو شعر أو كهانة ، وكل هذه أقوال باطلة تصرف عن الهداية والإيمان كل من أضله الله . قال تعالى :

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) » .

ف (يؤفك) أي يصرف – ثم لعن سبحانه أصحاب هذه الأقوال المختلفة المتضاربة الذين هم في غفلة وعمى لاهون وقد تمادوا في الطغيان يسألون الرسول استبعاداً وتكذيباً عن يوم الجزاء ويقولون متى يكون؟ وردّ عليهم سبحانه بأن الجزاء سوف يكون في اليوم الذي يدخلون فيه النار وفيها يعذبون وتقول لهم خزنتها : ذوقوا عذابكم – هـذا العذاب الذي كنتم تستعجلونه في الدنيا . قال تعالى :

« قُتِلَ ٱلْخَرَّاصُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) » .

وبعد أن ذكر سبحانه المكذبين بيوم الجزاء المبطلين في أقوالهم عن الرسول والقرآن – أخذ يصف مـا أعده للمؤمنين في الآخرة من النعيم المقيم فذكر أنهم ينعمون في جنات تجري فيها العيون ، ويتقبلون كل مـا أنعم الله به عليهم من

(ذات الحبك) الطرق التي تسير فيها الكواكب . (يؤفك عنه) يصرف عن الحق الآتي به الرسول . (قتل الخراصون) لعن الكذابون . (غمرة) جهالة غامرة . (ساهون) غافلون عما أمروا به . (أيان يوم الدين) متى يوم الجزاء (إنكار له) . (يفتنون) يحرقون ويعذبون.

النعم راضية به نفوسهم ، وأوضح سبحانه أن سبب هذا النعيم إحسانهم الأعمال في الدنيا ، فقد كانوا يقضون أكثر الليل في تهجد وعبادة لا ينامون إلا القليل منه — في وقت السحر كانوا يستغفرون الله تعالى من ذنوبهم وهو ثلث الليل الآخر ، أرجى ساعات الإجابة — وخصصوا من أموالهم جزءاً مقدراً معلوماً لمساعدة السائلين الذين يتعرضون لطلب الإحسان من ذوي الحاجة والفقر ، أو لمواساة المحرومين ؛ وهم من حرموا من المال بأي وسيلة ، سواء كان الحرمان لجائحة أصابتهم ، أو لأنهم لا يحسنون التكسب . قال تعالى :

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ (١٩) » .

وبعد أن ذكر أوصاف المتقين وما أعده لهم من النعيم ، انتقلت الآيات تسرد شيئاً من الأدلة المحسوسة على قدرة الخالق العظيم . وهي عبر للمؤمنين ازدادوا بها يقيناً بالله إلى يقينهم — فأرض ذات فجاج تضم ألواناً من المخلوقات هي دلالة واضحة على قدرة القادر العظيم ، وفي التدرج في خلق الإنسان من نطفة فعلقة فمضغة إلى تمام الخلق ، آية لمن ينظر بعين الاعتبار . قال تعالى :

« وَفِي ٱلْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) » .

(يهجعون) ينامون . (بالأسحار) أواخر الليل . (المحروم) الذي حرم الصدقة لتعففه عن السؤال مع حاجته .

ووجهت الآية التالية أنظار العباد إلى أعظم سبب يحصل به تيسير الرزق ؛ وهو المطر ينزل من السماء بالخير والبركات . قال تعالى :

«وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » أما قوله تعالى : « وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) » .

أي من الثواب والجزاء في الآخرة ، كله مقدر مكتوب في السماء . وأقسم سبحانه أن ما ذكره من أمر الرزق في الدنيا والجزاء في الآخرة حق لا مرية فيه يجب أن يجزم المرء بوقوعه كما يجزم بأنه قادر على النطق لا شك عنده في ذلك . قال تعالى :

« فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ(٢٣)» .

وانتقلت الآيات بعد ذلك تسرد قصص بعض الرسل وأخبارهم مع أممهم ؛ بدأها سبحانه بقصة إبراهيم مع ضيوفه الملائكة فقال (هــل أتاك) والخطاب للرسول صلى الله عليــه وسلم ، ومعناه : هل جاءك خبر بما حدث بين إبراهيم وضيوفه من الملائكة ؟ ووصفهم بالمكرمين لأنهم مكرمون عنـد الله ، قدموا عليه وسلموا : فردّ التحية واستنكر أمرهم لأنهم غرباء لا يعرفهم؛ وقام بواجب الضيافة ؛ فأسرع إلى أهله ومال إليهم وهو معنى « راغ » وجاءهم بعجـل سمين محنوذ من خيار ماله ، وقربه إليهم ليأكلوا منه فامتنعوا ، فعرض عليهم أن يجيبوا دعوته لهم بالأكل قائلا (ألا تأكلون) وأضمر في نفسه الخوف منهم ، فطمأنوه بقولهم (لا تخف) ، وأردفوا ذلك ببشارته بمولود يولد له، يكون من حملة العلم وأهل المعرفة بالله ودينه .

وسمعت زوجة إبراهيم بهــذه البشارة ، فأقبلت عليهم في صيحة وضجـة

ضاربة وجهها بيديها تعجباً من إتيانها بالولد وهي في سن اليأس (عجوز عقيم) أي أألد وقد غدوت عجوزاً وكنت في صباي عقيماً ؟ فأجابها الملائكة بقولهم (كذلك قال ربك) أي نحن نخبرك عن الله ، والله حكيم في أعمـــاله ، عليم بمصالح عباده .. قال تعالى :

« هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ (٢٤) ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَٰماً قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ » أي مال وأسرع إليهم خفية « فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ، قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَــةً ، قَالُوا لَا تَخَفْ ، وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ، فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكِ ، إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ (٣٠) » .

وبعد أن عرف خليل الله إبراهيم أن ضيوفه ملائكة مرسلون من عند الله ، أخذ يستوضحهم عن الأمر الذي أُمروا به ، فأخبروه أن الله تعالى أرسلهم إلى قوم لوط بالعذاب لإجرامهم ، وسوف يلقون عليهم حجارة من طـــين معلمــة مكتوباً على كل حجر اسم من يرمى به ، أعدها الله للمسرفين . قال ابن عباس للمسرفين أي المشركين ، لأن الشرك أعظم الذنوب – ولقد أخرج الله قبـــل إهلاكهم كل من كان في قرية لوط من المسلمين ولم يكن فيهـــا غير أهل بيت واحد ممن أسلم وآمن بنبي الله لوط ، والبيت هو بيت لوط فيه بنتاه . ولقد ترك الله القرية بما أنزل عليها من العذاب ، عبرة لمن يعتبر ، ممن يخاف عذاب الله المؤلم

(ضيف ابراهيم) أضيافه من الملائكة . (فراغ إلى أهله) ذهب إليهم في خفية من ضيفه . (فأوجس منهم) أحس في نفسه منهم الخوف. (صرة)صيحة وضجة. (فصكت وجهها)لطمته بيدها.

من المؤمنين ، لأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بالعبر . قال تعالى :

« قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٣٧) ».

ثم ذكر سبحانه قصة نبي الله موسى ، حين أرسله إلى فرعون بالأدلة والبراهين الواضحة ، فأعرض فرعون عن الإيمان به معتزاً بجمعه وجنوده الذين كان يتقوى بهم كالركن الذي كان يقوى به البنيان – ورمى نبي الله موسى بالسحر والجنون ، فانتقم الله منه وأغرقه وجنوده في البحر ملوماً على كفره وعناده وجحوده – ففي قصة موسى مع فرعون وانتقام الله منه ومن قومه عبرة لمن يعتبر .

وفي إهلاك عاد لما كذبوا رسول الله هوداً ، عبرة أيضاً إذ أرسل الله عليهم ريحاً وصفها بأنها عقيم ، لا خير ولا بركة فيها أي لا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً ، فلم تبق الريح منهم ولا من أموالهم ومواشيهم شيئاً إلا جعلته بالياً هالكاً .

وفي إهلاك ثمود ، حين كذبوا رسول الله صالحاً ، عبرة أيضاً لمن يعتبر ،

« فما خطبكم » فما شأنكم الخطير . « مسومة » معلمة .

وذلك حين عقروا الناقـــة — أنذرهم رسول الله صالح بالعذاب فلم يكترثوا ، وتمادوا في الطغيان ، فأرسل عليهم الصاعقة أخذتهم بالنهـار وهم ينظرون إليها ، ولم يستطع أحد منهم الهرب والإفلات،ولم يقدروا على الانتصار لأنفسهم مما نزل بهم .

وفي إهلاك قوم نوح ، قبل هذه الأمم المكذبة ، عظة وعبرة لأنهم خرجوا عن أوامر الله وانتهكوا حرماته ، قال تعالى :

« وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ، وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ ، فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَــادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَـا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْـهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَـا ٱسْتَطَـٰعُوا مِن قِيَامٍ وَمَـا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ، إِنَّهُـمْ كَانُوا قَوْماً فَـٰسِقِينَ (٤٦) » .

وانتقلت الآيات بعد ذلـك تذكر جملة من الأدلة على ربوبيـــة الله وعظيم قدرته ، فذكرت أنه سبحانه خلق السموات (بأيد) أي بقوة ، ذكر ذلـك ابن عباس وغيره من مفسري السلف . وهو سبحانه القادر العظيم على إيجـــاد هذا الخلق العظيم ، حيث جعله رفيعاً من غير عماد ، واسع الأرجاء — والأرض

« فتولى بركنه » أعرض بجنوده عن الإيمان . « وهو مليم » آت بما يلام عليه من الكفر . « الريح العقيم » المهلكة لهم ، القاطعة لنسلهم . « فعتوا » فاستكبروا . « فأخذتهم الصاعقة » أهلكتهم صيحة او نار من السماء .

فرشها ، أي مهدها وجعلها صالحة للسكنى والانتفاع بها ، فنعم الخالق العظيم . ومن جميع صنوف المخلوقات خلق صنفين مختلفين : فخلق سماءً وأرضاً وليلا ونهاراً ، وشمساً وقمراً ، وذكراً وأنثى ، ليكون ذلك حافزاً على العظة والتذكرة بقدرة الله تعالى ، ودليلاً على ربوبية الخالق العظيم ، وليفر العباد من ذنوبهم إليه سبحانه بالتوبة كما أمر بذلك وإلى طاعته والعمل بما يرضيه ، فكما أنه فرد في الخلق والتصوير فهو فرد في الألوهية والتدبير ، ولهذا أنذر الرسول ﷺ العباد ، وخوفهم عقوبة الله ، وأمرهم أن لا يجعلوا له سبحانه شريكاً في العبادة ، فالعبادة حق لله ، وصرفها لغير الله شرك بالله وقد توعد الله المشرك بنار الجحيم . قال تعالى :

« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ الْمَـٰهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ ، إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١) » .

بعد هذا أخذ سبحانه يعزي الرسول ﷺ ، عن كفر قومه به ، وتكذيبهم له ، ورميهم إياه بالسحر والجنون ، ويذكر له أنهم كأسلافهم المكذبين لرسل الله ، كانوا كلما جاءهم رسول من عند الله رموه بالسحر والجنون ، وتساءل سبحانه قائلاً : (أتواصوا به) أي هل أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة ، حتى قال المتأخر نفس مقالة المتقدم ، ثم أجاب سبحانه على هذا التساؤل قائلاً : (بل هم قوم طاغون) أي لكنهم طغاة تشابهت منهم القلوب ، فتطابقت الأفعال ، قال تعالى :

« بنيناها بأيد » بقوة وقدرة . « إنا لموسعون » لقادرون . « الأرض فرشناها » مهدناها كالفراش . « فنعم الماهدون » المسوون المصلحون . « خلقنا زوجين » صنفين ونوعين مختلفين . « ففروا إلى الله » فاهربوا من عقابه إلى ثوابه .

« كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) » .

ثم أمر الله الرسول ﷺ بالإعراض عنهم ، فلا لوم عليه بعد أن أدى الرسالة أتم الأداء وأكمله ، وأمره باستدامة التذكير مخبراً إياه أن الذكرى لا ينتفع بها غير المؤمنين ، حيث قد شرح الله صدورهم الإيمان . قال تعالى :

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) » .

ثم عرض سبحانه الحكمة من خلق الجن والإنس ؛ وهي عبادته وحده دون سواه ؛ وتوحيده وإخلاص الدين له ؛ وأوضح أنه لم يخلق الخلق عبثاً ؛ أو ليتكثر بهم من قلة . كما أنه لا يريد منهم أن يرزقوا أحداً من خلقه ، أو يرزقوا أنفسهم ؛ ولا أن يطعموا عباده . قال البغوي : وإنما أسند الإطعام إلى نفسه ، لأن الخلق عيال الله ، كما جاء في الحديث : « يقول الله يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمني » أي فلم تطعم عبدي . اهـ .

وقيل أيضاً في معنى (وما أريد أن يطعمون) أي أنه سبحانه منزه عن الأكل والشرب وكل صفات البشر ، وأخبر سبحانه أن بيده رزق جميع العباد ، وأنه المقتدر على كل ما أراده ويريده . ثم أخذ سبحانه يتوعد الكفار لاستعجالهم العذاب ، ويذكر أن لهم نصيباً كبيراً منه ، وهو معنى قوله تعالى: (ذنوباً) كنصيب أمثالهم في الكفر الذين أهلكهم الله ، كقوم نوح ، وعاد ، وثمود . وأصل الذنوب في اللغة ، الدلو العظيمة المملوءة . فلا يستعجلوا العذاب فإنه واقع بهم لا محالة ، فالويل لهم منه يوم القيامة . ذلك اليوم الذي وعد الله فيه بالجزاء . قال تعالى :

« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠) » .

« ذنوباً » نصيباً من العذاب . « فويل » هلاك أو حسرة .

تفسير سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) ».

أقسم الله سبحانه بالطور ، وهو الجبل الذي كلم الله عليه رسوله موسى . وأقسم بالكتاب المسطور في رق منشور – فالكتاب هو القرآن ، أو جميع الكتب المنزلة ، أو هو اللوح المحفوظ . والمسطور : هو المكتوب . ومعنى (في رق منشور) في الصحيفة أو الجلد الذي كتب فيه الكتاب المسطور ، وأصل الرق : الجلد ، والمنشور : الذي ينشر ويقرأ على الناس ، فيكون معنى الآية : يقسم الله تعالى بالكتاب المكتوب في الصحيفة التي تنشر وتقرأ .

وأقسم سبحانه بـ (البيت المعمور) وهو بيت في السماء السابعة كالكعبة في الأرض ، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ، يطوفون به ويصلون فيه ثم لا يعودون إليه .. سمي بالمعمور ، لعمارته بالقاصدين والعابدين من الملائكة .

وأقسم سبحانه بـ(السقف المرفوع) أي بالسماء – وأقسم بـ(البحر المسجور) والمراد به ، بحار الدنيا . والمسجور هو المملوء ؛ والمتوقد المتأجج ؛ كما جاء في الحديث « إن البحر يسجر يوم القيامة فيكون ناراً » . أقسم سبحانه بكل

(والطور) الجبل الذي كلم الله عليه موسى . (كتاب مسطور) مكتوب على وجه الانتظام . (رق) ما يكتب فيه . (منشور) مبسوط غير مختوم عليه . (البيت المعمور) هو بيت في السماء أو الكعبة . (البحر المسجور) الموقد ناراً يوم القيامة .

هذه المخلوقات الدالة على قدرته ؛ أن عذابه واقع بأعدائه ، لا أحد يستطيع أن يدفعه عنهم ؛ وسوف ينزل بهم العذاب يوم القيامة ؛ ذلك اليوم الذي تضطرب فيه السماء ؛ فتتحرك وتموج في بعضها موجاً ، وتذهب فيه الجبال عن أماكنها فتصير هباء ، فيا لشديد عذاب المكذبين في ذلك اليوم .

ووصف سبحانه المكذبين بقوله : (الذين هم في خوض يلعبون) أي كانوا في الدنيا يخوضون في الباطل ، ويتخذون دينهم هزواً ولعباً ، فجزاؤهم يوم القيامة أن يدفعوا إلى النار دفعاً بعنف وجفوة . ويقول لهم خزنتها (هذه النار التي كنتم بها تكذبون) أي في الدنيا ، أفهذا الذي تشاهدونه من العذاب والهوان ، سحر أم أنتم لا تبصرون كما كنتم في الدنيا لا تبصرون الحق ؟ يقال لهم ذلك تأنيباً ثم يؤمروا بدخولهم النار، ويقال لهم: ذوقوا حرها، وقاسوا شدتها، سواء صبرتم على عذابها أم جزعتم منه فلن يظلمكم الله بهذا العذاب ، إنما يجزيكم به على سوء أعمالكم في الدنيا . قال تعالى :

« يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَاءُ مَوْراً (٩) وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْراً (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) » .

وبعد أن أخبر سبحانه عن حال المكذبين ومصيرهم في الآخرة ؛ وصف

---

[1] « تمور السماء » تضطرب وتدور كالرحى . « فويل » هلاك ، أو حسرة . « خوض » اندفاع في الأباطيل . « يدعون » يدفعون بعنف وشدة . « اصلوها » ادخلوها ، أو قاسوا حرها .

حال عباده المتقين وما هم فيه من النعيم ، فأخبر أنهم يتفكهون بما أعطاهم الله من أصناف المآكل والمشارب ، وجميع الملاذ ، وقد نجاهم من عذاب النار ويقال لهم : كلوا واشربوا أكلاً هنيئاً لا تنغيص فيه ولا كدر ، وذلك جزاء ما عملتم من الأعمال الصالحة في الدنيا . قال تعالى :

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَـٰكِهِينَ بِمَا آتَـٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَـٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) » .

ثم ذكر سبحانه لوناً من ألوان النعيم الذي هم فيه يرفلون فقال :

« مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) » .

أي صفت لهم السرر التي يجلسون ويتكئون عليها وجعلت وجوه بعضهم إلى بعض وجعل لهم زوجات من الحور العين. والحور جمع حوراء، وهي شديدة بياض العين ، شديدة السواد فيها . والعين جمع عيناء ، وهي الكبيرة العينين مع جمال فيها. ثم ذكر سبحانه عاملاً آخر من عوامل سرور المؤمنين في الجنة ، وهو إلحاق أبنائهم بهم في المنزلة ، حيث ترفع درجة من نقص عمله من الأبناء إلى منزلة آبائهم ، دون أن ينقص من درجات الآباء ، ولا من ثواب أعمالهم . وذلك معنى قوله تعالى في الآية التالية (وما ألتناهم من عملهم من شيء) وهذا مقام الفضل منه سبحانه .

أما مقام العدل فهو ما أخبر عنه سبحانه بقوله: (كل امرىء بما كسب رهين) أي مرتهن بعمله ، لا يحمل عليه ذنب غيره ، سواء كان ذلك الغير أباً أو ابناً .

(فاكهين) متلذذين ناعمين . (سرر مصفوفة) موصول بعضها ببعض . (زوجناهم) قرناهم . (بحور عين) بنساء بيض نجل العيون ، حسانها .

قال تعالى :

« وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ، كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) ».

واستمر سبحانه في وصف نعيم المتقين ، فذكر أنهم يزادون على نعيمهم من أنواع الفاكهة وأصناف اللحوم مما تشتهيه نفوسهم . وأنهم يتعاطون في الجنة كأساً من الخمر ليست كخمر الدنيا ، لا تحملهم على التكلم باللغو ، وهو الباطل ، ولا الفحش والكذب الذي يأثمون به — أما خدمهم ،فكأنهم في الحسن والنضارة والبهاء ، اللؤلؤ المصون الذي لم يمسه أحد . قال تعالى :

« وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) » .

وعندما أمنوا من عذاب الله وصاروا إلى ما هم فيه من النعيم ، أقبل بعضهم على بعض يتحادثون عن ماضيهم في الدنيا ، وما كانوا فيه من خوفهم من الله إذ كانوا بين أهليهم ، وإشفاقهم من عذابه ويذكرون نعمة الله عليهم حيث أبدلهم من الخوف والاشفاق أمناً من عذابه ؛ ومنّ عليهم بالمغفرة ، ووقاهم عذاب السموم . والسموم اسم من أسماء جهنم ، وهو الريح الحارة التي تدخل المسام فسميت بها نار جهنم . وقالوا في محادثتهم معترفين بعظيم منّة الله عليهم — (إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو البر الرحيم) أي : كنا نتضرع إلى الله

(ما ألتناهم) ما نقصناهم (رهين) مرهون . (كأساً) خمراً . أو إناء فيه خمر . (لا لغو فيها) لا كلام ساقط فيها . (ولا تأثيم) ولا فعل يوجب الإثم . (لؤلؤ مكنون) مستور مصون في أصدافه .

ونخلص له الدعاء فاستجاب لنا فهو (البر) أي الصادق فيما وعد بـــه المحسنين من عباده ، الرحيم بهم ، قال تعالى :

« وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ، إِنَّهُ هُوَ ٱلْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) » .

وانتقلت الآيات بعد ذلك ، يأمر الله فيهـــا رسوله بالمداومة على التذكير والموعظة . ويعزيه عما رماه به قومه من السحر والجنون . قائلاً :

« فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ » أي برسالة ربك وإنعامه عليك بالنبوّة « بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ (٢٩) » .

أي لست هذا ولا ذاك كما يزعمون — والـكاهن هو الذي يدعي علم الغيب . ويخبر بما يكون في المستقبل . والمجنون من به مس من الجن . وأخذ سبحانـه يرد على مزاعم المشركين حين قالوا عن الرسول أنه شاعر. وأنهم سوف ينتظرون به الموت الذي أدرك أسلافه ، أو حوادث الدهر ومصائبه . وأمر الله الرسول أن يرد عليهم قائلاً : (تربصوا) أي : انتظروا بي الدوائر . فإني أنتظر لـكم أسوأ العواقب مثل الذي تنتظرونه لي . قال تعالى :

« أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) » .

واستمر سبحانه في الإنـكار عليهم قائلاً :

(مشفقين) خائفين العاقبة . (عذاب السموم) الريح الحارة ، نار جهنم . (هو البر) المحب العطوف . (ريب المنون) صروف الدهر المهلكة .

« أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) » .

أي أم تأمرهم عقولهم بهـذا الكذب والتناقض في القول حيث قالوا عن الرسول أنه كاهن — ومجنون — وشاعر ، بل هم قوم تجاوزوا الحد في الطغيان .

واستمر سبحانه في الإنكار عليهم قائلا :

« أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ، بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) ».

أي : أم يزعمون أن الرسول افترى القرآن وأتى به من عند نفسه ، بل ان كفرهم هو الذي حملهم على هـــذه المطاعن لأنهم لا يؤمنون بالقرآن ، ثم تحداهم بقوله :

« فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَـٰدِقِينَ (٣٤) » .

أي : إن كان في استطاعة الرسول أن يخلق قرآناً فليأتوا بمثل ما جاء به ، فإن أسباب القول لديهم متوفرة .

واستمر سبحانه في إنكاره عليهم مثبتاً ربوبيته وألوهيته قائلا :

«أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ (٣٥) ».

أي : أم خلقوا من غير خالق أنشأهم من العدم وذلك ما لا يصح أن يكون ، أم هم الخالقون لأنفسهم وذلك مستحيل ، فإذا بطل الأمران ، قامت عليهم الحجة ولزمهم الإقرار بخالق هو الله سبحانه وعبادته وحده دون سواه .

(قوم طاغون) يتجاوزون الحد في العناد . (تقوله) اختلقه من تلقاء نفسه .

واستمر سبحانه في إنكاره قائلاً :

« أَمْ خَلَقُوا السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ » أي أهم خلقوا السموات والأرض ؟ والجواب بالبداهة لا « بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) » .

أي لكن عدم إيقانهم بالحق هو الذي حملهم على الشرك وعدم توحيد الخالق.

واستمر سبحانه في إنكاره عليهم قائلاً :

« أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ » .

هل بيدهم أن يتصرفوا في الملك ؟ أو عندهم خزائن الله من المطر والرزق والنبوّة فيعطوا ويمنعوا من شاءوا ويخصوا من أرادوا .

« أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) » .

أي الأرباب القاهرون فلا يكونون تحت أمر ولا نهي وليس الأمر كذلك بل الله المالك المتصرف.

واستمر سبحانه في الإنكار عليهم قائلاً: « أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ » هل لهم مصعد يرتفعون عليه إلى السماء يستمعون إلى الوحي فيعلمون أن ما هم عليه من الكفر حق فهم به مستمسكون وإذا كان كذلك فليأت من يستمع لهم بحجة تبين صدق ما يزعمونه «فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٣٨)».

وانتقل سبحانه ينكر عليهم ما نسبوه له من البنات حيث جعلوا الملائكة بنات الله مع كرههم للبنات وسفه عقولهم حيث نسبوا لله ما يكرهونه لأنفسهم. قال تعالى :

(المصيطرون) الأرباب الغالبون أو المسلطون .

« أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) »

وفي سياق هذا الإنكار وجه سبحانه الخطاب للرسول ﷺ قائلاً :

« أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) » .

أي هل تسأل هؤلاء المشركين أجرة على تبليغك للرسالة فهم من هذا الغرم يحملون ثقلاً زهدهم في الإسلام ومنعهم من قبوله .

واستمر سبحانه في الإنكار عليهم قائلاً :

« أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) » .

أي هل عندهم علم بما غاب عنهم من علم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس به .

واستمر سبحانه في الإنكار عليهم قائلاً: « أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً » أي : مكراً يمكرونه بك ؛ والمعني بالخطاب هو رسول الله ﷺ حين اجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره ويدبرون طريقة إهلاكه ، ولذلك قال :

« فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) » .

أي : هم المجزيون بكيدهم وسوف يعود وبال مكرهم عليهم .

وختم سبحانه إنكاره عليهم بقوله :

أي يعتمدون عليه في رزقهم وجلب النفع وكشف الضر عنهم غير الله — ثم نزه نفسه سبحانه عن الشريك الذي يجعلونه له ويشركونه في العبادة معه من الأصنام والأوثان فقال :

« أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ » .

(من مغرم مثقلون) من التزام غرم متعبون . (هم المكيدون) المجزيون بكيدهم .

« سُبْحَـٰنَ ٱللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)».

ثم أخبر سبحانه عن شدة عنادهم ومكابرتهم في المحسوس بقوله :

« وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً » أى قطعة من السماء ساقطة عليهم لتعذيبهم لكابروا « يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) » .

أي ليس هذا غير سحاب تراكم بعضه على بعض – لذلك أمر الرسول ﷺ بالإعراض عنهم حتى يعاينوا يوم هلاكهم وهو يوم القيامة أو يوم موتهم – وفي ذلك اليوم لا ينفعهم مكرهم الذي استعملوه في الدنيا ، ولا ينصرون فيه من عذاب الله الواقع بهم . قال تعالى :

« فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٦) » .

ثم أخبر سبحانه أن للكافرين عذاباً في الدنيا قبل عذاب الآخره – وهو القتل والقحط ، وابتلاؤهم بالمصائب والأمراض ، وذهاب الأموال والأولاد ، ولكنهم لا يعلمون ذلك – قال تعالى :

« وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَٰلِكَ » أى قبل عذاب الآخرة .
« وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٤٧) » .

وأمر رسوله ﷺ أن يصبر على أذاهم حتى ينزل بهم العذاب الذي حكم الله به عليهم ، وطمأنه سبحانه بأنهم لم يبلغوا منه ما أرادوا من الفتك به فإنه بمرأى من الله وتحت حفظه ، ذكر هذا المعنى ابن كثير – وأمره أيضاً بالتسبيح

(كسفاً) قطعة عظيمة . (سحاب مركوم) مجموع بعضه على بعض . (فيه يصعقون) يهلكون . (لا يغني عنهم) لا يدفع عنهم .

بحمده حين يقوم ، أي من كل مجلس يجلسه ليكون التسبيح خاتمة المجلس وكفارة له .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من جلس مجلساً كثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت ، استغفرك وأتوب إليك ؛ إلا كان كفارة لما بينهما » وقال بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى : (فسبح بحمد ربك حين تقوم) أي لصلاة الظهر والعصر — وفي قوله تعالى (ومن الليل) أي حين تقوم من الليل لصلاة المغرب والعشاء (وإدبار النجوم) أي حين تقوم لصلاة الصبح وقيل غير ذلك والله أعلم .
قال تعالى :

« وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا ».

وفي ذلك إثبات صفة العين لله تعالى إثباتاً يليق بجلال الله وعظمه .

« وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩) » .

. (بأعيننا) في حفظنا وحراستنا . (سبح بحمد ربك) سبحه واحمده . (إدبار النجوم) وقت غيابها بضوء الصباح .

تفسير سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) » .

النجم إما أن يراد به الثريا أو جنس النجوم (إذا هوى) أي سقط مع الفجر – أقسم الله سبحانه بالنجم : ولله أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته ، أما المخلوق فلا يجوز أن يقسم إلا بالله – أقسم أن الرسول محمداً ﷺ وهو المعني بقوله (صاحبكم) أي الذي تعرفونه منذ نشأته ، ما ضل عن طريق الهدى وما غوى أي عدل عن الحق بعد ما عرفه . ولا يصدر في قوله عن الهوى وإنما يصدر في تبليغه عن وحي إلهي نزل إليه بواسطة جبريل وعلمه إياه – مبلغاً عن الله – وجبريل وصفه الله سبحانه أنه شديد القوى ، ووصفه أيضاً بأنه (ذو مرة) أي صاحب قوة أو منظر حسن .

« فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ » .

أي : قام جبريل في صورته التي خلقه الله عليها الأفق عند مطلع

« هوى » غرب وسقط . « ما ضل صاحبكم » ما عدل عن الحق والهدى . « ما غوى » ما اعتقد اعتقاداً باطلاً قط . « شديد القوى » جبريل عليه السلام . « ذو مرة » خلق حسن ، أو آثار بديعة . « فاستوى » فاستقام على صورته الخلقية . « دنا » قرب جبريل من النبي صلى الله عليه وسلم . « قاب قوسين » قدر قوسين أو ذراعين .

الشمس ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان بحراء ، فطلع له جبريل من المشرق في صورته التي خلقه الله عليها ، فخرّ رسول الله مغشياً عليه ، فنزل جبريل في صورة الآدميين وضمه إلى نفسه وهو معنى قوله تعالى : (ثم دنى فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى) والتدلي هو النزول بقرب الشيء ، فكان جبريل من رسول الله ﷺ بقدر مسافة القوسين أو أقرب من ذلك . وقيل أيضاً (قاب قوسين) أي قدر ذراعين . والقوس الذراع يقاس بها كل شيء - وقيل أيضاً (قاب قوسين) أي مسافة ما بين الوتر من القوس وهو إشارة إلى تأكيد القرب - وقوله تعالى :

« فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) » .

أي أوحى الله إلى عبده الرسول محمد ﷺ ما أوحى به إليه بواسطة جبريل - قيل أوحى إليه بقوله :

« أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى » إلى قوله « وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ » وقيل غير ذلك .

ثم أخبر سبحانه أن رؤية النبي ﷺ لجبريل على صورته التي خلقه الله عليها كانت حقيقية ؛ ولم يكذب فؤاده ما رآه بصره - وقيل ان الذي رآه النبي ﷺ هو سبحانه وكانت الرؤية بفؤاده، حيث جعل الله بصره في فؤاده - روى ذلك عن ابن عباس - وكانت الرؤية ليلة الإسراء . قال تعالى :

« مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) » .

(عبده) عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم وجه سبحانه الخطاب للمشركين قائلاً :

« أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) ».

أي : فتجادلونه على الشيء الذي رآه وعلمه وذلك أنهم جادلوه حين أسري به ﷺ ، وقالوا له يبغون تسقطه : صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عير لنا في الطريق .

ثم عاد سياق الآيات إلى ما سبق من خبر الرؤية ، رؤية الرسول ﷺ لجبريل أو لله جل جلاله ، قال تعالى :

« وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) » .

أي : ولقد رأى الرسول ﷺ جبريل مرة ثانية وكانت المرة الأولى في الأرض ، والثانية :

« عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) ».

وعلى الرواية الثانية أن الرسول ﷺ رأى ربه مرتين بقلبه .

وسدرة المنتهى هي شجرة في السماء السادسة أو السابعة ، إليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها .

وعند سدرة المنتهى تقع جنة المأوى ، وهي التي يأوي إليها المتقون من عباد الله أو تأوي إليها أرواح الشهداء . قال تعالى :

« عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) » .

وكانت الرؤية المومى إليها كما أخبر الله بقوله :

(أفتمارونه) أفتجادلونه صلى الله عليه وسلم .(نزلة أخرى) مرة أخرى في صورته الخلقية .
(سدرة المنتهى) التي إليها تنتهي علوم الخلائق . (جنة المأوى) مقام أرواح الشهداء .

« إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) » .

أي حين غطى السدرة ما غطاها من الملائكة وغير ذلك مما أبهم ، وتحدث النبي عنه ﷺ : « فغشيها ألوان ما أدري ما هي » .

ثم أخبر سبحانه عن كال أدب الرسول ﷺ ، وأن بصره لم يتجاوز ما أمر برؤية ما مكنه الله من رؤيتــه في تلك الليلة – ولقد رأى من آيات الرب الدالة على قدرته وعظمته الآية الكبرى – قال تعالى :

« مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ (١٨) » .

ورد في صحح مسلم في قوله تعالى : (لقد رأى من آيات ربــــه الكبرى) قال : رأى جبريل في صورته ، له ستمائة جناح .

وانتقلت الآيات بعد ذلك يوبخ الله سبحانه فيها المشركين لعبادتهم غــــيره من الأصنام وهي اللات – والعزى – ومناة – كان كل صنم منها معبوداً لفريق من العرب في موضع معلوم . قال تعالى :

« أَفَرَأَيْتُمُ اللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنوٰةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) » .

أي أخبروني عن هذه المعبودات التي اتخذتموها – كيف يصح أن تكون شريكة لله في عبادته مع انها لا تعقل – فضلاً عن أن تكون لها قدرة على الخير والشر وجلب النفع وكشف الضر .

ثم أعاد عليهم التوبيخ لزعمهم أن الملائكة والأصنام بنات الله قائلاً :

« أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) » .

(يغشى السدرة) يغطيها ويسترها . (ما زاغ البصر) ما مال عما أمر برؤيته . (ما طغى) ما جاوزه (أفرأيتم) أخبروني . (اللات والعزى ومناة) أصنام كانوا يعبدونها في الجاهلية . (قسمة ضيزى) جائرة ، أو عوجاء .

أي أتجعلون لله الولد وتجعلون الولد أنثى مع بغضكم للأناث وتختارون لأنفسكم الذكور ؟ فلو كانت هذه القسمة مع مخلوق لكانت قسمة جور باطلة ، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة وهو منزه سبحانه عن أن يكون له ولد أو والد أو صاحبة .

واستمر سبحانه في الإنكار عليهم في عبادتهم الأصنام وتسميتها آلهة قائلا :

« إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ » .

أي ما هذه الأصنام إلا أسماء جعلتموها أنتم وآباؤكم أعلاما على آلهة مزعومة لم ينزل الله بهذا الزعم الباطل من حجة ولا برهان – والواقع أنهم يتبعون في دعواهم انها آلهة ، مجرد الظن وما تشتهيه أنفسهم ويزينه لهم الشيطان ، ولقد جاءهم من الله البيان الواضح بالكتاب والرسول أنها ليست آلهة وأن العبادة لا تصلح إلا لله وحده . قال تعالى :

« إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) » .

ثم أخبر سبحانه أنه لا يحصل للمرء كل ما يتمناه ، فإذا كان تعلق الكفار بآلهتهم الزائفة رجاء شفاعتهم فإنهم لن يبلغوا أملهم لأن الله سبحانه مالك الدنيا والآخرة والمتصرف فيهما ولا يكون شيء فيهما إلا بإذنه – وإذا كان الله سبحانه قد نفى أن ينتفع أحد بشفاعة الملائكة إلا بعد إذنه لهم في الشفاعة ورضاه عن المشفوع فيه فكيف بمن هو دونهم في المنزلة فضلا عن آلهة

المشركين الزائفة الباطلة التي لم يشرع الله عبادتها بـل قد نهى وحذر عنها .
قال تعالى :

« أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ (٢٥) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦) » .

ثم أنكر سبحانه عليهم أمراً آخر ومقـالة فظيعة لا تصدر إلا ممن لا يوقن بالجزاء في الآخرة والبعث للحساب؛ وهي تسميتهم الملائكة تسمية الاناث حيث قالوا عنهم أنهم بنات الله ، وليس لهم علم بصحة ذلك بـل هو كذب وزور — وما يتبعون في قولهم هذا غير الظن والتوهم — وليس الظن بالذي يقوم مقام العلم أو يغني في إدراك الحقيقة شيئاً — ثم أمر الرسول ﷺ بالإعراض وهجر كل من أعرض عن القرآن والإيمان وكان أكثر همه الدنيا وانصرف لها فكانت نهـاية علمه وغاية ما وصل إليه تفكيره . وأخبره سبحانـه أنه عليم بمن أعرض عن سبيل الحق والهدى وبمن سلك سبيل الهدى ، فيجازي كلًا من الفريقين بعمله .
قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠) » .

(لا تغني شفاعتهم) لا تدفع ، أو لا تنفع .

ثم أخبر سبحانه عن عظيم ملكه وسلطانه وأن له ملك السموات والأرض يتصرف فيهما وفي كل مخلوقاته بعدله ورحمته . ومن عدله أنه يجازي كلا بعمله من خير أو شر فالمسيء جزاؤه العذاب على إساءته والمحسن جزاؤه النعيم في الجنة على إحسانه . قال تعالى ·

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) » .

ثم ذكر سبحانه بعض أوصاف المحسنين ، فأخبر أنهم الذين يجتنبون الكبائر من الذنوب وان وقع منهم بعض الصغائر فإن الله تعالى يغفرها لهم ، فهو سبحانه واسع المغفرة . قال تعالى :

« الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ » .

فاللمم من صغائر الذنوب ، وقيل في معنى (إلا اللمم) يلمون بالذنب ، أي يقربون منه ولا يرتكبونه .

وأخبر سبحانه عن سابق علمه بأحوال عباده ، منذ أن أنشأ أباهم آدم من الأرض ، واستخرج ذريته من صلبه - ومنذ أن كانت الذرية أجنة أي مستترة في بطون الأمهات ، يعلم الشقي من السعيد ، فليس لأحد أن يزكي له نفسه أو يمتدحها على الطاعة ، فهو سبحانه عليم بصدق من اتقاه . قال تعالى :

«هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ، فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) » .

« الفواحش » ما عظم قبحه من الكبائر . « اللمم » صغار الذنوب. « فلا تزكوا أنفسكم » فلا تمدحوها بحسن الأعمال .

ثم عرض سبحانه قصة أحد المشركين ، قيل هو الوليد بن المغيرة ، كان قد تابع رسول الله ﷺ على دينه فعيره بعض قومه على تركه دين آبائه ، فقال لهم إني خشيت عذاب الله : فضمن له أحدهم ان هو أعطاه شيئاً من المال ، ورجع إلى الشرك أن يتحمل عنه عذاب الله ، فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى الذي وعد أن يتحمل عنه العذاب بعض ما كان ضمنه له ، ثم بخل عليه بالباقي وأمسك عن دفعه : فأنزل الله تعالى قوله :

« أَفَرَءَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) » .

أي أدبر عن الإيمان .

« وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ (٣٤) » .

أي أعطى صاحبه الذي وعد أن يتحمل عنه عذاب الله شيئاً من المال ، وأكدى بمعنى قطع وأمسك وبخل بالباقي .

ثم أخذ سبحانه يرد على الوليد في تصديقه لمن ضمن أن يرد عنه العذاب قائلاً :

« أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ (٣٥) » .

أي هل عنده علم بالغيب فيعلم أن صاحبه يتحمل عنه عذابه ، أو لم يخبر بما كتب في توراة موسى ، وصحف الخليل إبراهيم الذي تم وأكمل ما أمر به من الأوامر — أن أية نفس لا تحمل عن الأخرى من أوزارها شيئاً ، ولا يحصل لها أجر ولا تجزى إلا بما عملت — وسوف ترى ما قدمته من خير أو شر فتجزى

« أكدى » قطع عطيته بخلا .

عليه يوم الجزاء جزاء تاماً ــ وأن كل الخلائق يرجعون إلى الله فإليه سبحانه المصير قال تعالى :

« أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) » .

وأخذ سبحانه بعد ذلك يعدد طرفاً من نعمه على عباده فذكر أنـــه خلق فيهم السرور والحزن وما ينشأ عنهما من الضحك والبكاء . وخلق الموت والحياة، وخلق الذكر والأنثى من الإنسان والحيوان ، وخلقهما من نطفة تمنى ، أي تصب في الأرحام . قال تعالى :

« وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) » .

ومن قدر على بدء الخلق هو بلا شك قادر على الإعــادة وهي النشأة الأخرى قال تعالى :

« وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ (٤٧) » .

ومن نعمه على العباد أيضاً أنه سبحانه أغناهم بالأموال وجعلها لهم قنية أي يمسكونها ويدخرون منها بعد الكفاية . قال تعالى :

« وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) » .

« لا تزر وازرة » لا تحمل نفس آثمة . « المنتهى » المصير في الآخرة . « تمنى » تدفق في الرحم « أقنى » أفقر ، أو أرضى بما أعطى .

وأخبر سبحانه أنه رب الشعرى ، وهو كوكب كان فريق من العرب يعبده فأعلمهم أنه رب معبودهم ، ولا معبود يستحق العبادة غيره . قال تعالى :

« وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ (٤٩) » .

ثم أخذ سبحانه يسرد الأدلة على عظيم قدرته ، فذكر أنه أهلك عاداً الأولى وهم قوم هود ، ويقال لهم عـاد بن إرم بن سام بن نوح – ودمَّر ثمود ، وهم قوم صالح فلم يبق منهم أحداً ، وأهلك قوم نوح قبـل عاد وثمود ، لأنهم كانوا أشد طغيانـاً وتمرداً من الذين من بعـــدهم ، وهو الذي دمر قرى قوم لوط : وهي المؤتفكة أي المنقلبة قلبها عليهم ، فجعل عاليها سافلها ، ومعنى « أهوى » أي طرحها جبريل من علو إلى أسفل . قال تعالى :

« وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) » .

أي غطاها بالحجارة المنضودة المسومة التي أرسلها عليهم .

وبعد أن عـدد النعم المتعددة وأردفهـا بذكر النقم التي أنزلها بالظالمـين والمكذبين من الأمم السابقة وجه سبحانه الخطاب للإنسان قائلاً :

« فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) » .

أي فبأي نعم ربك تشك وتجادل .

ثم ختم سبحانه السورة بجملة أمور :

« الشعرى » كوكب معروف كانوا يعبدونه . « عاداً الأولى » قوم هود (ع) . « المؤتفكة » قرى قوم لوط (ع) . « أهوى » أسقطها إلى الأرض بعد رفعها . « فغشاها » ألبسها وغطاها. « آلاء ربك » نعمه تعالى . « تتمارى » تتشكك .

أولها : التوجيه إلى رسالة الرسول محمد ﷺ والاخبار بأنه نذير للناس من عذاب الله ، كما أنذر الرسل قبله أممهم .

وثانيها : التوعد بقرب الساعة ، وأنه لا يكشفها ولا يعلم خبرها ولا موعد قيامها إلا الله سبحانه .

وثالثها : إنكاره على المشركين تعجبهم من أن يكون القرآن صحيحاً ؛ وضحكهم منه سخرية واستهزاء ، وعدم بكائهم عند وعده ووعيده ، وغفلتهم وإعراضهم عنه .

ثم توجه لعباده المؤمنين آمراً إياهم بعبادته والسجود له ، والإخلاص في توحيده . قال تعالى :

« هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ (٥٦) أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ (٥٧) » .

أي قربت الساعة .

« لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) » .

قيل في معناها أيضاً : إذا وقعت القيامة لا يكشف أهوالها إلا الله سبحانه.

« أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ (٦١) » .

أي لاهون غافلون .

« فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا (٦٢) » .

(أزفت الآزفة) اقتربت الساعة ودنت . (أنتم سامدون) لاهون غافلون .

تفسير سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

« اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) » .

يخبر سبحانه عن قرب قيام الساعة وانتهاء أجل الدنيا ، لكي يأخذ العباد الأهبة للرحيل وليستعدوا للحساب . وقد ورد في ذلك من الأحاديث الصحيحة الشيء الكثير . منها ما رواه الإمام أحمد ، عن سهل بن سعد ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (بعثت أنا والساعة كهاتين) وأشار بإصبعيه ، السبابة والوسطى . وذكرت الآيات حادثة انشقاق القمر ، وقد كانت معجزة لرسول الله ﷺ ، وآية على صدقه ، طلبها منه المشركون . والأحاديث على إثباتها متضافرة .

ثم اتجهت الآيات تسرد ألواناً من عناد المشركين وجحودهم الحق ، فذكرت أنهم لا يصدقون بالأدلة والبراهين التي يشاهدونها ، والتي تدل دلالة واضحة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل يعرضون عنها زاعمين أنها

(انشق القمر) انفلق فلقتين معجزة له صلى الله عليه وسلم . (سحر مستمر) دائم ، محكم ، أو ذاهب . (مزدجر) ازدجار وردع . (النذر) الرسل أو الأمور المخوفة .

من السحر الذي كثيراً ما يشاهدونـه ، ولا يلبث أن يذهب ، فليس له دوام . وأخبر الله سبحانه أنهم في تكذيبهم هذا للرسول إنما يتبعون أهواءهم وسوف يلقون جزاء ذلك عندما تستقر الأمور يوم القيامة ، وعندما يستقر بكل عامل عمله – فالخير مستقر بأهله في الجنة والشر مستقر بأهله في النار .

وذكرت الآيات أيضاً أن هؤلاء المكذبين المعاندين قـد وصل إلى علمهم أخبار الأمم المكذبة بالرسل قبلهم ، وعلموا ما أنزل الله بهم من النـكال ، فكان ذلك كافياً لزجرهم عما هم فيه من الكفر والعناد . ولله سبحانه الحكمة التامـة البالغة في هدايته للمهتدين ، وإضلاله للجاحدين المعـاندين . وإذن فليست تغني النذر فيمن أضله الله – هذا إذا كانت « ما » نافية – وإذا كانت استفهاميـة فالمعنى : فأي شيء تغني النذر إذا خالفوهم وكذبوهم – والنذر جمع نذير .

ثم أمر الله الرسول أن يعرض عنهم وأن ينتظر بهم العذاب يوم يبعثهم الله ، ويدعون إلى شيء منكر فظيع لم تؤمن به نفوسهم ، وهو موقف العرض والحساب ، ومـا فيه من البلاء والأهوال . ووصف سبحانـه خروجهم من القبور ، بقوله : (خشعاً أبصارهم) أي ذليلة – وشبههم بالجراد ؛ حين يخرجون من القبور في حيرتهم وانتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابـة للداعي قائلين في مسيرهم : هذا يوم عسر شديد الهول . قال تعالى :

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَـدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَـرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) » .

(شيء نكر) منكر فظيع . هول القيامة . (خشعا أبصارهم) ذليـلة خاضعة . (الأجداث) القبور . (يوم عسر) صعب شديد .

(مهطعين) أي مسرعين — ثم أخذ سبحانه يعزي الرسول ﷺ عن تكذيب قومه له ، فذكر له أن قوم نوح قبل قومه كانوا قد كذبوا نوحاً وانتهروه وزجروه عن دعوته إياهم ، ورموه بالجنون . وعندما ضاق بهم رفع رأسه إلى السماء داعياً ربه لينقذه منهم ، وينتصر له ولدينه . قال تعالى :

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ » - أي مقهور - « فَٱنْتَصِرْ (١٠) ».

واستجاب الله دعاءه وأنزل من السماء ماء كثير الانصباب متتابعاً ، وأمر الأرض أن تتفجر بالعيون فالتقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قدره الله في الأزل وهو هلاك قوم نوح بالطوفان — أما نوح فقد أمره الله أن يصنع سفينة يخوض بها الماء وهو آمن به ، صنعها من الخشب وشدها بالمسامير ، وهي المراد بقوله (دسر) فكانت سفينة نوح تجري وسط ماء الطوفان بمرأى من الله تعالى وبأمره وتحت حفظه ورعايته . ذكر ذلك ابن كثير وغيره .

وكان هذا الإغراق لقوم نوح جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنبي الله ورسوله نوح ، كما كان عبرة لمن يتعظ ويعتبر . وقيل بل أبقى هيكل السفينة أمداً طويلا ، حتى رآه أول هذه الأمة لتكون عبرة لمن رآها ، فيذكر بها حادث الطوفان — قال تعالى :

« فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ ٱلسَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا

(ازدجر) زجر عن تبليغ رسالته . (مغلوب فانتصر) مقهور فانتقم لي منهم . (أبواب السماء) السحاب . (بماء منهمر) منصب بشدة وغزارة . (فجرنا الأرض) شققناها .

فَٱلْتَقَى ٱلْمَـــاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَـــد تَّرَكْنَـٰهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) » .

أي فهل من متعظ بها ومتذكر لها . وأردف سبحانه هذه القصة وكل قصة ذكرها في هذه السورة عن إهلاكه للمكذبين لرسله أردفها بقوله :

« فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) » .

أي ما أشد ما أنزلته بهم من العذاب . فكيف كان عذابي لمن كفر وكذب رسلي ولم يتعظ بإنذاري .

ثم ذكر سبحانه أن هذه القصص في هذه السورة بل في القرآن كله إنما ذكرها الله للعبرة . وقد سهل سبحانه لفظ القرآن ويسر معناه ليسهل حفظه وتدبره ، فهل من متذكر به ومتدبر له ، قال تعالى :

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) » .

وبعد قصة قوم نوح ذكر قصة عـــاد وتكذيبهم لرسوله فكانت عـاقبتهم الهلاك والعذاب كقوم نوح ، وهي عاقبـة كل مكذب برسل الله ، معرض عن إنذاره . قال تعالى :

« كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) » .

ثم وصف سبحانه طريقة هلاكهم فذكر أنـه أرسل عليهم ريحاً صرصراً أي شديد البرودة في يوم مشئوم مستمر نحسه وشؤمه ودماره . فـكانت

(قدر) قدرناه أزلاً . (دسر) مسامير تشد بهـا الألواح . (تجري بأعيننا) بحفظنا وحراستنا . (تركناها آية) عبرة وعظة . (مدكر) معتبر ، متعظ بها . (نذر) إنذاري .

الريح تنتزع الواحد منهم ثم ترمي به فتدك رقبته فيغدو منظره كأعجاز النخل أي كأصوله المنقلبة . قال تعالى :

« إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) » .

أي منقلع من مكانه ساقط على الأرض .

« فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) » .

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٢٢) » .

تقدم تفسيرها .

وبعد قصة عاد ، ذكر سبحانه قصة ثمود وأخبر أنهم كذبوا رسوله صالحاً ، وكذبوا بالإنذار الذي جاءهم به ؛ واستنكفوا أن يتبعوا واحداً من البشر مثلهم وهم جماعة ، وكانوا يريدون أن يكون الرسل ملكاً وقالوا مظهرين استنكافهم (إنا إذاً لفي ضلال وسعر) أي لو اتبعناه لكنا في خطأ وذهاب عن الصواب – وقيل في معنى (سعر) أي جنون أو غم وهمّ – قال تعالى :

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) » .

وأنكروا أن يختصه الله بالنبوة دونهم فرموه بالكذب والأشر والتجبر . وأنه يريد التعاظم عليهم بادعائه النبوة فتوعدهم الله على هذه المقالة بقوله

(ريحاً صرصراً) شديدة السموم أو البرد أو الصمت . (يوم نحس) شؤم عليهم . (مستمر) دائم نحسه، أو محكم.(تنزع الناس) تنقلهم من أماكنهم . (أعجاز نخل) أصوله بلا رؤوس. (منقعر) منقلع من قعره ومغرسه . (سعر) جنون ، أو بعد عن الحق .

(سيعلمون غداً من الكذاب الأشر) أي سيعلمون قريباً عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة من هو الكذاب الأشر. أهو الرسول أو من كذب به. قال تعالى :

« أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ (٢٦) ».

ولقد بلغ من تعنتهم أنهم طلبوا أن يخرج الله لهم ناقة من صخرة صماء فذكر الله سبحانه أنه مخرجها لهم لتكون فتنة أي اختباراً لهم ؛ وحجة عليهم في تصديق الرسول صالح ، وأمر الله تعالى صالحاً أن يرتقبهم أي ينظر ما هم صانعون وأن يصبر على أذاهم فالعاقبة له ، وأمره أيضاً أن يبلغهم أن الماء مقسوم بينهم وبين الناقة ، لها يوم تشرب فيه ، ولهم يوم يستقون منه ، وكل نصيب من الماء تحضره من كانت له النبوة — ولكنهم ملوا هذه القسمة ودعوا أشقى رجل فيهم لعقر الناقة فتناولها بسيفه فخرت صريعة ، وذلك معنى قوله تعالى : (فتعاطى فعقر) فأهلكهم الله بصيحة جبريل فغدوا وكأنهم هشيم المحتظر ، والهشيم كل ما تفتت من الشجر والحشيش اليابس ، والمحتظر : هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة من الشوك والشجر . قال تعالى :

« إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

(كذاب أشر) بطر ومتكبر . (فتنة لهم) امتحاناً وابتلاء لهم . (اصطبر) اصبر على أذاهم . (قسمة بينهم) مقسوم بينهم وبين الناقة . (كل شرب) كل نصيب وحصة من الماء . (محتضر) يحضره صاحبه في نوبته . (فتعاطى) فتناول السيف .

صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٣٢) » .

تقدم تفسيرها .

ثم ذكر قصة قوم لوط وتكذيبهم لرسوله ومخالفتهم له في ارتكاب معصية الشذوذ الجنسي وأنه سبحانه أرسل عليهم حاصباً أي ريحاً ترميهم بالحصباء إلا آل لوط نجاهم الله من العذاب حيث خرجوا من بين القوم الظالمين وقت السحر — وكانت نجاتهم من العذاب نعمة امتن الله بها عليهم . وكما أنعم على آل لوط بنجاتهم ، كذلك ينعم على كل مؤمن مطيع بنجاته من عذابه . قال تعالى :

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) » .

وأخبر سبحانه أن إهلاكه لقوم لوط لم يكن إلا بعد أن أنذرهم بأس الله فلم يلتفتوا إليه ، بل تشككوا فيما أنذرهم به ، ولم يصدقوا . ولقد بلغ من تماديهم في الطغيان ، طلبهم من لوط أن يسلم إليهم ضيوفه ،وكانوا ملائكة، لفعل الفاحشة ؛ فضربهم جبريل بطرف جناحه عندما أرادوا اقتحام الباب ، فطمس الله أعينهم وأذهب بصرهم وقيل لهم على لسان الملائكة أو لسان الحال ذوقوا هذا العذاب الذي أنذركم به لوط . قال تعالى :

« وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ

(كهشيم) كاليابس المتفتت من شجر الحظيرة . (المحتظر) صانع الحظيرة . (الزريبة) لمواشيه من هذا الشجر . (حاصباً) ريحاً ترميهم بالحصباء . (نجيناهم بسحر) عند انصداع الفجر . (أنذرهم بطشتنا) أخذتنا الشديدة بالعذاب . (فتماروا بالنذر) فكذبوا بها متشاكين . (راودوه عن ضيفه) طلبوا منه تمكينهم منهم .

ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) » .

ثم أخبر سبحانه أن وقت نزول العذاب كان صباحاً وكان مستقراً عليهم دام حتى أسلمهم إلى عذاب الآخرة ، وقيل لهم ذوقوا عذاب الله جزاء تكذيبكم بإنذاراته التي بلغكم إياها رسوله . قال تعالى :

« وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ (٤٠) ».

ثم ذكر سبحانه قصة فرعون وقومه حين جاءهم موسى وهرون ، فكذبوا بجميع آيات الله التي كانت معجزة أيده الله بها فأخذهم الله بالعذاب أخذ عزيز قادر على إهلاكهم . قال تعالى :

« وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢) » .

ثم أخذ سبحانه يخوف قريشاً ويتوعدهم بالعذاب قائلاً :

« أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) ».

أي هل أنتم خير من الأمم المكذبة للرسل قبلكم ممن نزل بهم العذاب أم أن لكم براءة من العذاب ذكر خبرها في الكتب المنزلة .

« أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) » .

« فطمسنا أعينهم » أعميناهم . « بكرة » أول النهار . « في الزبر » في الكتب السماوية « نحن جميع » جماعة لا تغلب . « منتصر » ممتنع ، لا نغلب .

أم يقول هؤلاء الكفار أن أمرنا مجتمع ونحن يد واحــدة ومنتصر أمرنا — فرد الله عليهم بقوله :

« سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) » .

أي سيهزم جمعهم وسوف يولون الأدبار منهزمين — وقد هزمهم الله في غزوة بدر شر هزيمة ، وذلك جزاؤهم في الدنيا ، أما في الآخرة وعند قيام الساعـــة وهو موعد الجزاء والحساب ، فسوف يلقون جزاء أعظم داهية ، وأشد مرارة من القتل والأسر يوم بدر ، حيث يسحبون في النـــار على وجوههم ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً : ذوقوا حر جهنم . قال تعالى :

« بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَـــةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ (٤٧) » .

أي بعدوا عن الحق في الدنيا ، وفي الآخرة تسعر عليهم النار .

« يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) » .

ثم أخبر سبحانه أنه خلق كل شيء بقدر أي بقضاء معلوم سابق في الأزل — كما جاء في الحديث « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة) اهـ ، ومن ذلك جزاء الكافرين ، فهو جــار على مـــا قضاه وقدره . وأخبر سبحانـــه أيضاً أنه إذا أراد أمراً لا يحتاج إلى تأكيد بل هو في سرعة تنفيذه كسرعة لمح البصر ، وهو إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقـه ، قال تعالى :

« الساعة أدهى » اعظم داهية . « أمر » اشد مرارة من عذاب الدنيا . « سعر » جنون او بعد عن الحق .

« إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) ».

ثم وجه سبحانه الخطاب إلى المشركين قائلاً :

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) ».

أي ولقد أهلكنا أمثالكم وأشباهكم من الأمم السابقة لما كذبوا الرسل فهل كان في إهلاكهم عظة لمتعظ فيرتدع عن تكذيب الرسول .

ثم هدد الله سبحانه بالإخبار بأن كل ما يصنعونه من صغير وكبير سوف تحصيه عليهم الملائكة الموكلة بكتابة الأعمال . قال تعالى :

« وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) ».

أي مسطر مكتوب .

ثم انتقل بعد ذلك سبحانه إلى وصف حالة المتقين السعداء في الآخرة، فأخبر أنهم في بساتين وأنهار في الجنة دار كرامة الله ورضوانه عند الملك العظيم القادر على تنعيمهم بكل ما يشتهون على عكس حال الأشقياء قال تعالى :

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥) ».

« خلقناه بقدر » بتقدير سابق او مقدراً محكماً . « إلا واحدة » كلمة واحدة، هي « كن »
« اشياعكم » اتباعكم في الكفر . « مستطر » مسطور مكتوب . « نهر » انهار متدفقة .
« مقعد صدق » مكان مرضيّ .

تفسير سورة الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

« الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) » .

بدأ سبحانه هذه السورة بتعداد نعمه على عباده وذكر في طليعتها القرآن وأنه يسر النطق به وسهله للذكر والتلاوة والتدبر — وخلق الإنسان ، والمراد

« بحسبان » يجريان بحساب مقدر في بروجهما . « النجم » النبات الذي ينجم ولا ساق له . « يسجدان » ينقادان لله فيما خلقا له . « وضع الميزان » شرع العدل وأمر به الخلق . « أن لا تطغوا » لئلا تتجاوزوا العدل والحق . « بالقسط » بالعدل . « لا تخسروا الميزان » لا تنقصوا موزون الميزان . « الأرض وضعها » خلقها مخفوضة عن السماء . « ذات الأكمام » أوعية الطلع. « ذو العصف » القشر أو التبن أو الورق اليابس . « الريحان » النبات الطيب الرائحة . « آلاء ربكما » نعمه تعالى . « تكذبان » تكفران أيها الثقلان .

به آدم وعلمه أسماء كل شيء . أو المراد جنس الإنسان وعلمه النطق والتعبير بما يدور في نفسه — وخلق سبحانه الشمس والقمر يجريان متعاقبين بحساب دقيق لا يختلف ولا يضطرب — وخلق النجم وهو ما ليس له ساق من النبات — بل ينبسط على وجه الأرض — وخلق الشجر بكل أنواعه — وذكر أن كلا من النجم والشجر يسجد لله تعالى ، والله أعلم بحقيقة سجوده — وقيل النجم هو نجوم السماء — وسجوده طلوعه . وخلق سبحانه السماء مرفوعة فوق الأرض ، وأمر بالعدل وهو المراد بقوله(ووضع الميزان) وقيل بل المراد الميزان الذي توزن به الأشياء ـ فعلى المعنى الأول يكون تفسير قوله تعالى: (ألا تطغوا في الميزان) أي لئلا تجوروا وتجاوزوا العدل في كل أعمالكم وتصرفاتكم — وعلى المعنى الثاني — وضع الميزان لئلا تبخسوا الناس في الوزن — وكرر سبحانه الأمر بإقامة العدل أو الوزن وعدم نقص المكيال والميزان .

وذكر سبحانه أنه وضع الأرض للأنام أي خفضها ومهدها وجعلها صالحة لاستقرار الخلائق عليها ، وخلق فيها من صنوف الفاكهة مختلفة الألوان والطعوم كما خلق فيها النخل له أكمام ، والأكمام الأوعية قبل أن ينشق عنها الثمر — وخلق فيها جميع الحبوب لها عصف ، وهو التبن — وخلق الريحان — وهو كل مشموم من النبات طيب الرائحة ، أو الريحان المعروف — وكل هذه النعم يربي الله بها العباد ، وهي أدلة قاطعة على ربوبيته — ثم وجّه سبحانه الخطاب في نهاية الآيات إلى الثقلين ، الإنس والجن ، قائلا (فبأي آلاء ربكما تكذبان).

أي : فبأي هذه النعم العظيمة يكذب الثقلان ، وكرر سبحانه هذا الاستفهام في هذه السورة كلما ذكر العباد بنعمة من نعمه ـ قيل ان هذا التكرار للتأكيد ، وقيل بل يرجع في كل موضوع إلى معنى الآية التي قبله .

ثم ذكر سبحانه أنه خلق أصل الإنسان من صلصال : وهو الطين الذي جف فصارت له صلصلة . وخلق أبا الجن وهو إبليس من مارج، وهو لهب النار الصافي من الدخان . قال تعالى :

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) ».

وأخبر سبحانه أنه رب مشرقي الصيف والشتاء ومغربي الصيف والشتاء ، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم . قال تعالى :

« رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) » .

وأخبر سبحانه أنه مرج البحرين أي أرسلهما متجاورين لا يلتقيان وجعل بينهما حاجزاً من الأرض ، أو من قدرة الله ، وهو البرزخ بحيث لا يبغي أحدهما على الآخر بالامتزاج — والمراد بالبحرين الملح والحلو فالحلو كل الأنهار ، والملح كل البحار الملحة . قال تعالى :

« مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) » .

وأخبر سبحانه أنه يخرج من البحرين اللؤلؤ والمرجان — قيل إنما يخرج ذلك من البحر الملح فقط ، غير أن من الجائز في لغة العرب أن يذكر شيئان ثم يخص أحدهما بفعل كما قال تعالى :

« يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ .. الخ [١] ».

وإنما كان الرسل من الإنس دون الجن . قال تعالى :

---

(١) سورة الأنعام آية ١٣٠ .

(صلصال) طين يابس يسمع له صلصلة . (كالفخار) الطين يحرق حتى يتحجر . (مارج) لهب صاف لا دخان فيه . (مرج البحرين) أرسل العذب والملح في مجاريهما . (يلتقيان) يلتقي طرفاهما . (بينهما برزخ) حاجز أرضي أو من قدرته تعالى . (لا يبغيان) لا يطغى أحدهما على الآخر .

« يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) » .

وأخبر سبحانه أن الجوار المنشآت ؛ وهي السفن العظيمة في قبضته تجري وتمخر الماء بقدرته ، وهي في عظمها كالجبال في كبرها وضخامتها ، قال تعالى :

« وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) » .

ثم أخبر سبحانه أنه كتب الفناء على كل من سار على الغبراء وأن البقاء له وحده ، فهو الحي القيوم ذو الجلال والإكرام ، أي صاحب العظمة والكبرياء . قال تعالى :

« كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) » .

وفي هذه الآية إثبات صفة الوجه للباري جل وعلا خلافاً للجهمية ، فله سبحانه وجه يليق بجلاله وعظمته . ثم أخبر سبحانه أن كل من في السموات والأرض من مخلوقاته يسأله حاجته ، والكل منهم مفتقر إليه ، فهو سبحانه يتصرف في ملكه تصرفاً يظهر أثره ، كل يوم من العطاء والمنع ، والإماتة والإحياء وغير ذلك . قال تعالى :

« يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) ».

(له الجوار) السفن الجارية . (المنشآت) المرفوعات الشرع . (القلوع) . (كالأعلام) كالجبال الشاهقة او القصور . (ذو الجلال) العظمة والاستغناء المطلق. (الاكرام) الفضل التام.

ثم توعد سبحانه الجن والإنس بالحساب والجزاء على الأعمال ، فقال :

« سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١) » .

ومعنى ذلك الوعيد كقول القائل لمن يهدده سأفرغ لعقوبتك ، وليس المراد التفرغ من شغل : فإن الله جلت عظمته لا يشغله شأن عن شأن .

« فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) » .

ثم أخبر سبحانه عن عجز الجن والإنس عن الهرب من أمره وقضائه : وذلك حين يفرون من أهوال يوم القيامة أو في الدنيا هرباً من الموت . قال تعالى :

« يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) » .

أي لا تقدرون على النفوذ إلا بقوة وغلبة وليس لكم قوة ولا غلبة .

« فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) » .

وأخبر سبحانه أنهم لو حاولوا الهرب لردتهم الملائكة والزبانية بما ترسله عليهم من الشواظ وهو لهب النار — والنحاس وهو الدخان أو الصفر المذاب يصب على رؤوسهم فلا يمتنعان منها ولا يكون لهم ناصر من عذاب الله . قال تعالى :

« يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) » .

(سنفرغ لكم) سنقصد لمحاسبتكم . (أيها الثقلان) الانس والجن . (تنفذوا) تخرجوا هرباً من قضائه . (بسلطان) بقوة وقهر ، وهيهات ..! (شواظ) لهب لا دخان فيه . (نحاس) صفر مذاب .

ثم أخبر سبحانه أن وراء إرسال الشواظ والنحاس مـــا هو أشد هولاً يوم القيامة — وهو تشقق السماء وتصدعها وتلونها بلون الوردة وذوبانها ، كما يذوب الدهن من شدة الهول ، في ذلـك اليوم لا يسأل الإنس أو الجن عن ذنوبهم لأن الله سبحانه قد أحصاها عليهم . والسؤال المنفي هنـا هو ما كان على وجـه الاستخبار ، أما سؤال التوبيخ والتقريع فهو ثابت كما قال تعالى :

« فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [١] » الآية .

وقد ذكر سبحانه أن المجرمين يعرفون بسيماهم أي بعلامات تظهر عليهم ، وهي سواد الوجوه ، وزرقة العيون ، فلا داعي لسؤالهم ، بل ينزل بهم أمر الله فتجمع نواصيهم ؛ والناصية مقدم الرأس ، تجمع إلى أرجلهم ، ويقذفون في النار ويقال لهم توبيخاً : هذه جهنم التي كنتم تكذبون بوجودهـا — ثم يتنوع عذابهم فيها ، فتارة يعذبون بالنار ، فإذا استغاثوا عذبوا بشرب الحميم الآن ، والحميم هو الماء الحار ، والآن هو الذي بلغ منتهى الحرارة ، قال تعالى :

« فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) » أي يسعون بين هذا وذاك « فَبِأَيِّ

---

(١) سورة الحجر آية ٩٢ .

« فكانت وردة » كالوردة في الحمرة . « كالدهــان » كدهن الزيت في الذوبان . « بسيماهم » بسواد الوجوه ، وزرقة العيون . « فيؤخذ بالنواصي » بشعور مقدم الرؤوس . « حميم آن » ماء حار تناهى حره .

آلاءِ رَبِّكُما تُكذِّبَانِ (٤٥) » .

وبعد أن قص الله سبحانه أخبار المجرمين وعذابهم في الجحيم ، ذكر ما أعده لعباده البررة الصالحين ، وذكر من أوصافهم أنهم يخافون القيام بين يدي ربهم للحساب . فراقبوا الله في السر والعلن ، وتركوا المحرمات ، واشتغلوا بالطاعات فوعدهم الله بدخول الجنتين والتنعم فيهما ، قال تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتـــان) .

ثم أخذ سبحانه في وصف الجنتين فقـــال (ذواتا أفنان) أي لهما أغصان حسنة ، جمع فنن ، وهو الغصن . (فيهما عينان تجريان) . أي بالمــاء الزلال ، إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل .

(فيهما من كل فاكهة زوجان) .

أي فيهما من كل فاكهة صنفان ونوعان . قال تعالى :

« وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّـهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكما تُكذِّبانِ (٤٧) ذَواتاَ أفنَانٍ (٤٨) فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكما تُكذِّبانِ (٤٩) فِيهِـما عَيْنانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكما تُكذِّبانِ (٥١) فِيهِـما مِنْ كُلِّ فـٰكِهَـةٍ زَوْجانِ (٥٢) فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكما تُكذِّبانِ (٥٣) » .

(ذو أفنان) أغصان . (زوجان) صنفان معروف وغريب ، أو أنواع من الثمار .

وبعد أن ذكر سبحانه طعام أهل الجنتين ، وذكر فراشهم ، فأخبر أنهم يتكئون على فرش بطائنها أي باطنها من إستبرق ، وهو الغليظ من الديباج — والمراد بالبطائن ما كان ملاصقاً للأرض .

وأخبر سبحانه أن ثمار جنتيهم (دان) أي قريب منهم ، فهو يتدلى لمن يريده فيجنيه دون عناء بخلاف ثمار الدنيا ، فهي لا تجنى إلا بالكد والتعب ، قال تعالى :

« مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَانِ (٥٥) » .

ثم ذكر سبحانه أوصاف نسائهم اللاتي تتم بهن المتعة وأخبر أنهن قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ، ولم يسبق أن مسهن أو اتصل بهن اتصالاً جنسياً قبل أزواجهن أهل الجنتين أحد من الإنس أو الجن فهن أبكار — كالياقوت والمرجان في الحمرة والجمال ، قال تعالى :

« فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَانِ (٥٩) » .

« إستبرق » غليظ الديباج. « جنى الجنتين » ما يجنى من ثمارها . « دان » قريب من يد المتناول . « لم يطمثهن » لم يفتضهن قبل أزواجهن .

وبعد أن ذكر سبحانه ما أعده من النعيم لعباده المتقين ، أعقب ذلك بقوله :

« هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَـٰنِ إِلَّا الْإِحْسَـٰنُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكما تُكذِّبانِ (٦١) » .

أي ليس جزاء من أحسن العمل في الدنيا إلا أن يحسن إليه الجزاء في الآخرة .

ثم أخبر سبحانه أن وراء هاتين الجنتين جنتين أقل من الجنتين السابقتين في المرتبة والفضل ، وهما لأصحاب اليمين ، ثم أخذ سبحانه في وصفهما فقال : (مدهامتان) .

أي تضربان إلى السواد من شدة الخضرة والري ، وفيهما عينان فوارتان بالماء لا تنقطعان ، وفيهما من جميع أنواع الفواكه ، وخص النخل والرمان بالذكر مع أنهما من الفواكه ، تشريفاً لهما ، وبياناً لفضلهما على سائر الفواكه .

قال الله تعالى :

« وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكما تُكذِّبانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكما تُكذِّبانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكما تُكذِّبانِ (٦٧) فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكما تُكذِّبانِ (٦٩) » .

ثم أخذ سبحانه يصف نساء هاتين الجنتين فذكر أنهن خيرات ، جمع خيرة

« مدهامتان » خضراوان شديدتا الخضرة . « نضاختان » فوارتان بالماء لا تنقطعان .

وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلق والوجه ، وهن مقصورات أي محجوبات في خيام اللؤلؤ لم يسبق لأحد من الإنس أو الجن أن اتصل بهن اتصالاً جنسياً قبل أزواجهن ، ويتكئن على (رفرف) وهي الوسائد أو رياض الجنة (وعبقري) وهي البسط الجميلة ذات النقوش العجيبة — قال تعالى :

« فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) ».

وختم سبحانه السورة بقوله :

« تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨) » .

● تم المقرر ●

(خيرات) خيرات الأخلاق . (حور) نساء بيض حسان . (مقصورات في الخيـام) مخدرات في البيوت . (رفرف) وسائد أو فرش مرتفعة . (عبقري) بسط ذات خمل رقيق . (تبارك) تعالى ، أو كثر خيره وإحسانه . (ذي الجلال) العظمـة والاستغناء المطلق . (الاكرام) الفضل التام .

محتويات الجزء الثالث

من كتاب « التفسير الميسر »

طبع على مطابع
دار لبنان
للطباعة والنشر
هاتف ٢٥٧٤١١-٢٩٤٢٠٤-٢٩٣٠٤٣
بيروت - لبنان - ص.ب ٥٦٢٠